



عرس الزين

الطيب صالح

دار العودة - بيروت



عريس الزين

صمم الخلف الفنان : موسى طهيا

الطيب صالح

عريس الزين

رواية

دار العودة - بيروت

حقوق الطبع محفوظة لدار العودة

١٩٨٨

يُطْلَبُ مِنْ دَارِ الْعَوْدَةِ - بَيْرُوتَ
كُوَيْتِشِ الْمَرْعَةِ - بِنَايَةِ رَيْفِيَّةِ بَرَا سَنَنْتَرِ
تَلَفُونُ ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥
تَلَكِيسُ E-L-٢٣٦٨٢ MEREBI
م.ب. ١٤٦٢٨٤

قالت حليلة بائنة اللبن لآمنة - وقد جاءت كمادتها قبل
شروق الشمس - وهي فكيل لها لبناً بقرش :

« سمعت الخبر ؟ الزين مو داير يعرّس » .

وكاد الوعاء يسقط من يدي آمنة . واستغلت حليلة انشغالها
بالنبا فغشتها اللبن .

كان فناء المدرسة «الوسطى» ساكناً خاوياً وقت الضحى،
فقد اوى التلاميذ الى فصولهم . وبدأ من بعيد صبي يهرول لاهث
النفس، وقد وضع طرف رداءه تحت ابطه حتى وقف امام باب
«السنة الثانية» وكانت حصة الناظر .

«يا ولد يا حمار . ايه اخوك ؟»

ولم المكر في عيني الطريفي :

«يا فندي سمعت الخبر ؟»

«خبر بتاع ايه يا ولد يا بهم ؟»

ولم يززع غضب الناظر من رباطة جأش الصبي، فقال وهو
يكنم ضحكته :

«الزين ماش يمقدو له بعد باسكر» .

وسقط حنك الناظر من الدهشة وبخا الطريفي .

وفي السوق اقبل عبد الصمد على دكان شيخ علي ، محتقن الوجه ، ليس ثمة ادنى شك في انه غضبان. كان له على شيخ علي، تاجر المماري، دين ماطله عليه شهراً كاملاً-وقد قرر ان يخلصه منه ذلك اليوم، بالخير او بالشر .

« علي . أنت يعني قايل انا ما بخلص قروشي منك ، ولا- فكريك شنو ؟ »

« حاج عبد الصمد . كدى قول بسم الله واقعد نجيب لك فنجان جبنة » .

« يا زول جبنتك طايرو عليك ، قوم افتح الخزنة دي ادني قروشي ، ولا- كان ان بقيت ما بي ضمة كان فهمي » .

وبصق شيخ علي على « السنة » من فمه .

« كدى اقعد اتحدثك بالخير دا » .

« يا زول انا مو فاضي لك ولا فاضي لي خبيراتك. باقي انا عارفك مستهبل داير تطربش علي قروشي » .

« بين قروشك حاضرات. كدى اقعد انحكيلك حكاية عرس الزين »

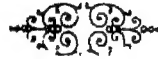
« قست عرس منو ؟ »

« عرس الزين » .

وجلس عبد الصمد ووضع يديه على رأسه وظل صامتا
برهة، وشيخ علي ينظر اليه مقتبلاً بالآثر الذي أحدثه. وأخيراً
وجد عبد الصمد ما يقول :

«اي لا اله الا الله محمداً رسول الله. عليك الرسول يا شيخ
علي دار حديث شنودا ؟ »

ولم يخاص عبد الصمد دينه في ذلك اليوم .



ولما انتصف النهار كان الخبر على فم كل واحد . وكانت
الزينة على البئر في وسط البلد يلاً أوعية النساء بالماء ويضاحكن
كعادته . فتجمع حول الأطفال ، وأخذوا ينشدون « الزينة
عرس ... الزينة عرس » . فكان يرميهم بالحجارة ، ويمر ثوب
فتاة مرة ، ومرة يمز امرأة في وسطها ، ومرة يقرس أخرى
في فخذهما ، والأطفال يضحكون ، والنساء يتصارخن ويضحكن
وتعلو فوق ضحكهم جميعاً الضحكة التي أصبحت جزءاً من
البلد منذ أن ولد الزينة .

يولد الاطفال فيستقبلون الحياة بالصريخ، هذا هو المعروف
ولكن يروى ان الزين، والعهد على امه والنساء اللاتي حضرن
ولادتها، اول ما مس الارض، انفجر ضاحكاً . وظل هكذا
طول حياته . كبر وليس في فمه غير سنتين، واحدة في فكه
الاعلى والاخرى في فكه الاسفل . وامه تقول ان فمه كان مليئاً
بأسنان بيضاء كالؤلؤ . ولما كان في السادسة ذهبت به يوماً
لزيارة قريبات لها، فمرا عند مغيب الشمس على خرابية يشاع
انها مسكونة . وفجأة تسمر الزين مكانه واخذ يرتجف كمن به
حمى، ثم صرخ . وبعدها لزم الفراش اباماً . ولما قام من مرضه
كانت اسنانه جميعاً قد سقطت، الا واحدة في فكه الاعلى،
واخرى في فكه الاسفل .

كان وجه الزين مستطيلاً، فأتى عظام الوجنتين والفكين
وتحت العينين . جبهته بارزة مستديرة، عيناه صغيرتان محمّتان
دائماً ، محجراهما غائران مثل كهفين في وجهه . ولم يكن على
وجهه شعر إطلاقاً، لم تكن له جواجب ولا اجفان، وقد بلغ
مبلغ الرجال وليست له لحية أو شارب .

تحت هذا الوجه رقبة طويلة . (من بين الألقاب التي أطلقها
العصبيان على الزين «الزرافة») . والرقبة تقف على كتفين
قويتين تهطلان على بقية الجسم في شكل مثلث . الذراعان
طويلتان كذراعي الفرد . اليدين غليظتان عليها أصابع
مسهوبة تنتهي بأظافر مستطيلة حادة (فالزین لا یقلم أظافره
أبداً) . الصدر مجوف ، والظهر محدوب قليلاً، والساقان
رقيقتان طويلتان كساق الكركي . أما القدمان فقد كانتا
مفرطتين عليها آثار ندوب قديمة (فالزین لا یحب لبس الاحذية
والزین يذكر قصة كل جرح من هذه الجروح . مثلاً هذا الشلخ
الطويل على القدم اليمنى ؛ الممتد من الرسغ على ظاهر القدم
إلى الفرجة بين الأصبع الأولى والثانية . يحكي الزين قصته
فيقول : « الجرح دا يا جماعة ليه حكاية » ويستفزه محبوب
قائلاً : « حكاية شنو يا عوير ؟ يا مشيت تسرق ضربوك بي
غصن شوك » . ويقع هذا موقعاً حسناً في نفس الزين ،
فيستلقي على قفاه ضاحكاً ، ثم يضرب الأرض بيديه ويرفع

رجليه في الهواء ويظل بضحك بطريقته الفذة ، ذلك الضحك
 الغريب الذي يشبه نهيق الحمار . وكان ضحكه قد أعدى
 الحاضرين جميعاً ، فتحول المجلس إلى قهوة مدوية . وبذلك
 الزين نفسه ، ويمسح بكم ثوبه الدمع الذي سال على وجهه من
 الضحك ، ويقول : أي ... أي ... مشيت أسرق .
 ويستفزه محبوب من جديد : « شنّ مشيت تسرق آمرّمد ؟
 يمكن قتّ دابر لك شيتنّ فأكله » . ويمسح الزين وجهه بيديه
 ويعود للضحك من جديد . ويرجع الحاضرون أن الزين دخل
 بيتاً ليسرق طعاماً ، إذ أنه كان معروفاً بالنهم ، إذا أكل
 لا يشبع . وفي الأعراس حين تأتي « سفر » الطعام ويتعلق
 الناس حلقات يأكلون ، يتعاشى كل فريق أن يجلس الزين
 معهم ، إذ أنه حينئذ يأتي في لمح البصر على كل ما في الآنية ،
 ولا يترك أكلًا لا كل . وقال له عبد الحفيظ : « ماكّ طاري
 العملة عملتها وقت عرس سعيد ؟ » وأجاب الزين وهو يقهقه :
 « أيّ طاري ... عليك أمان الله الأكل وكنت أكلته عدمته
 الحبة إن كان موجني اسماعيل مقطوع الطاري لحقي » . كان
 الزين قد أوكل بنقل الطعام في عرس سعيد فكان يمشي جيئة
 وذهاباً بين « الديوان » حيث اجتمع الرجال و « التّسكل »
 في داخل البيت حيث تقوم النسوة بالطهي . وفي الطريق من
 التسكل إلى الديوان كان الزين يتمهل قليلاً ويأكل ما طاب له
 الأكل من الرعاء الذي يحمله ، وحين يصل به إلى الناس يكاد

يكون خالياً . وفعل ذلك ثلاث مرات حتى لفت إنتباه أحد
اسماعيل ، فتابعه حتى وقف في نصف الطريق ، ورفع
الغطاء عن صينية مملوءة بالدجاج المحمر . وما أن أمسك الزين
بدجاجة منها وقربها إلى فمه ، حتى هجم عليه احد اسماعيل
وأشبهه ضرباً . وسأله محجوب مرة أخرى : « ما تقول لنا يا
فقر» مشيت تسرق شنو ؟ » ولما لاحظ للزين ان الناس حوله
قد أرمفوا آذانهم ، اعتدل في قعدته ووضع ذراعيه بين ركبتيه
وقال « الصيف الفات وقت حسن المريق ... كنت متأخر في
الساقية ، الدنيا يازول كان القمر يلجلج . رميت ثوبي فوق كتفي
وجيت سادر للبيوت . أقول لك وكنت وصلة الرملة العندطرف
الحلة ، اسمع لك حسن زغاريت ... » وقاطعه محجوب : « اي
صدق . دا كان عرس بكري » . واستمر الزين : « اقول لك
يا زول قت امشي اشوف الحكاية شنو . أثارني ناس فـريق
الطلحة سارن العرس . مشيت لقيت القيامة قايمة . الزيتة
والزنبليطه والدلايلك والزغاريت . أول شي مشيت أهـبش
ان كان ألقى لي شينن آكله .. »

وانفجر المجلس بالضحك ، فقد كان ما قدروا .. « الحريم
في النكل أدني لحيات أكلتها ، وأدني شينن مر شربته . »

وقال محجوب : « يبقى دا عرقى آ مسجـم » .

وقال الزين : « لا . مو عرقى قال لك أنا العرقى ما بعرفوا.. اقول لك آزول الشي الشربته دا طار لي في راسي . بعدين مر تحت من التكل . دخلت بيت ، القالك كمشة حريم والارياح والدلكه والمهلب ما يدبك الدرب .. علي بالطلاق آزول الريحه سكرتني ،

وضحك عبد الحفيظ: «وين المره البطلقها مع الرجال؟» لم يعبأ الزين بهذا، ولكنه استمر يحكي في القصة وقد اخذته النشوة « وفي الوسط القالك العروس . بنيتن سمجة مكبرنة ومدخنة وملبسيتها فركة ترمصيص . . وهنا صمت الزين وادار عينيه الصغيرتين في وجوه الحاضرين ، وفمه مفتوح وقد برز سنائه . ولم يقو عجوب على الصبر ، فأخذ يستحنه ان يكمل القصة : « بعدين شن سويت ؟ »

« بعدين نطيب على العروس . »

وحين قال هذا قفز من مكانه كالضفدعة . وضع الحاضرون وانفجر الزين في الضحك واستلقى على بطنه وراح يضرب برجليه في الهواء . ثم انقلب على ظهره وقال وهو ما يزال يشق بالضحك : « مسكت الشافعة عضيتها في خشمها . . وتشهد

محجوب واستغفر. « اقول لك يا زول الحريم طلقن الكواريلك
والبيت فار والشافعة المروس بقت تصرخ. وما القا لك الا زول
ضرب كرامى بي سكين. اقول لك قت يا مين مسكنها فريت
جربه لا من وصلت املي. » وفجأة استوى الزين جالساً وظهر
على وجهه جد بالغ ، وقال يوجه حديثه لمحجوب : « اسمع يا
زول . انت داير تترس لي بنك علوية ولا عندك كلام ؟ »
فأجابته محجوب يحذم وحزم كأنه يعني ما يقول : « البت انا
مضيتها ليك . مدحين قدام الناس الحاضرين ديل بعد تحش
قمحك وتلم قمرق وتبيمه وتحضر القروش يحيي نعتد لك . » هذا
الوعد ارضى الزين ، وصمت برهة وقد قطب حاجبيه وزم شفثيه
وكأنه قد اخذ يفكر في مستقبل حياته مع علوية ومسؤولية
القيام بإعباء زوجة واطفال . وقال : « خلاص . اشهدوا يا
خوانا . الرجل دا مرقى منته كلمة ، باكر بعد باكر ما يحيي
يفكر » وقال الحاضرون جميعاً ، احمد اسماعيل ، والطاهر
الرواسي ، وعبد الحفيظ ، وحمد ود الرئيس ، وسعيد صاحب
الدكان ، قالوا انهم شهدوا على الوعد الذي قطعه محجوب وان
الزواج سيتم بأذن الله .

قصة حب الزين لعلوية ابنة محجوب كانت آخر قصة حب
له . بعد شهر او شهرين سيأمنها ويبدأ قصة جديدة .
لكنه في الوقت الحاضر مشغول بها ، يصحو وينام على ذكرها
تجده في الحقل في منتصف النهار ، عنياً على « طوريته » والعرق

يتصبب من وجهه ، وفجأة يكف عن الحفر ويقول بأعلى صوته :
 « انا مكتول في حوش محبوب » . وفي الحقول الجاورة يكف
 عشرات الناس عن حفر الأرض برهة حين يسمون نداء الزين .
 الشبان يضحكون ، وبعض الشيوخ الذين يضيّقون أحياناً بعث
 الزين يجهمون بتبرم : « الولد المطرطش دا يرغي يقول شنو؟ »
 وحين ينتهي العمل في الحقل عند الغيب وتراوح القوم إلى بيوتهم
 يمشي الزين من الحقل إلى البيت وسط زفة كبيرة من الشبان
 والصبيان والفتيات الصغار ، يتضحكون من حوله ، وهو يخال
 مزهوا بينهم ، يضرب هذا على كتفه ، ويقرص هذه في خدها
 ويقفز في الهواء قفزات ، وكلما رأى شجيرة طلع على قارعة
 الطريق نط فوقها ، وبين الحين والحين يصيح بأعلى صوته ،
 صياحاً يتردد في أرجاء القرية التي غربت عليها الشمس :
 « ارروك ... يا ناس الغريق ... يا اهل الحلة ... انا مكتول
 في حوش محبوب ... »



قتل الحب الزين اول مرة وهو حدث لم يبلغ مبلغ الرجال
كان في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة ، نحيلاً هزيلاً كأنه عود يابس .
ومها قال الناس عن الزين ، فأنهم يعترفون بسلامة ذوقه ، فهو
لا يحب الا اروع فتيات البلد جمالاً واحسنهن ادباً واحلاهن
كلاماً . كانت عزة ابنة العمدة في الخامسة عشرة من عمرها
وقد تفتتج جمالها فجأة كما تنتعش النخلة الصبية حين يأتيها الماء
بعد الظمأ . كانت ذهبية اللون مثل حقل الحنطة
قبيل الحصاد ، وكانت عيناها واسمتين سوداوين في
وجه صافي الحسن ، دقيق الملامح ، ورموش عينيها طويلة
سوداء ، ترفعها ببطء فيعس الناظر اليها بوض في قلبه . وكان
الزين أول من نبه شبان البلد إلى جمال عزة . ارتفع صوته فجأة
ذات يوم في جمع عظيم من الرجال نفرم العمدة لأصلاح حقله .

ارتفع صوته المبحوح الحاد ، كما يرتفع صوت الديك عند طلوع
الفجر : « عوك يا أهل الحلة . يا ناس البلد . عزه بنت العمدة
كأثلاها كتيل . الزين مكتول في حوش العمدة » . وفوجيء
الناس بتلك الجرأة ، والتفت العمدة بمنف ناحية الزين وقد تحرك
غضب غريزي في صدره . وفجأة كأنما الناس كلهم ، في آن
واحد ، أدركوا التباين المضحك بين هيئة الزين ، وهو واقف
هنالك كأنه جلد ممزجة جاف ، وبين عزه بنت العمدة ، فأنقجروا
ضاحكين كلهم في آن واحد . ومات الغضب في صدر العمدة .
كان جالساً على مقعد تحت ظل نخلة ، يحمر العينين ، منتفض
الشاربين ، يحث القوم على العمل . كان رجلاً مهيباً جاداً قل أن
يضحك ، بيد أن هذه المرة قد ضحك من قول الزين ، ضحكته
الحسنة المفرقة ، وصاح به : « الزين .. ان بقيت اشتغلت
شديد الليلة ، نمرس لك عزة » . وضحك القوم مرة أخرى
عجالة للعمدة ، ولكن الزين ظل صامئاً . وعلى وجهه جد
واهتمام ، ودون أن يشعر وجد ضربات معوله في الأرض تزداد
قوة وتتابعاً .

ومضى شهر بعد ذلك والزين لا حديث له إلا حبه لعزته
وان إياها وعده بزواجها . وقد عرف العمدة كيف يستغل
هذه العاطفة ، فسخر الزين في أعمال كثيرة شاقة يمجز عنها
الجن . كنت ترى الزين العاشق يحمل جوز الماء على ظهره في

عز الظهر، في حر تثن منه الحجارة، مهرولاً هنا وهناك، يسقي
جنيئة العمد. وتراه ماسكاً بفأس أضخم منه يقطع شجرة أو
يكسر حطباً . وتراه منهمكاً يجمع العلف لحبر العمد وخيله
وعجوله. وحين تضحك له عزة مرة في الاسبوع، لانكاد الدنيا
تسمه من الفرح . وما ان مضى شهر ، حتى شاع في البلد ان
عزه خطبت لابن خالها الذي يعمل مساعداً طبيباً في ابو عشر
ولم يثر الزين ولم يقل شيئاً . ولكنه بدأ قصة جديدة.

استيقظت البلد يوماً على صياح الزين : انا مكتول في
فريق القوز : وكانت ليلة هذه المرة فتاة من البدو الذين
يقيمون على اطراف النيل في شمال السودان، يفتدون من أرض
الكبابيش ودار حر ومضارب الهوادر والمريصاب في كردفان
يشع المساء في اراضيهم في بعض المواسم ، فيفتدون على النيل
بأبليهم وأغنمامهم طلباً للرعي . واحياناً تلم بهم سنوات قعط حين
تضن السماء بالمطر ، فيتساقطون على المناهل في ديار الشايقة
والبديرية المقيمين على النيل . اغلبهم لا يلبثون حتى تنكشف
الغمة ثم يعودون من حيث أتوا . ولكن بعضاً منهم كانت
تستودعهم حياة الاستقرار على وادي النيل، فيبقون. ومن هؤلاء
عرب القوز. ظل هؤلاء البدو سنوات طويلة يرابطون على طرف
الأرض المزروعة ، يبيعون اللبن ، ويرعون الغنم ، ويحلبون
حطب الوقود، وفي موسم حصاد التمر يجمعونه لأصحابه مقابل
أجر قليل . لا يتزاوجون مع السكان الأصليين ، فهم يمتزجون

أنفسهم عرباً خلصاً، وأهل البلد يعتبرونهم بدواً أجلافاً. ولكن
الزّين كسر هذا الحاجز . كان لا يستقر في مكان ، ما يزال
سحابة نهاره سائحاً في البلد من اقاصها إلى اقاصها . وحلته
قدماء يوماً إلى فريق الفوز لغير سبب . فهام حول البيوت
كأنه يبحث عن شيء ضاع منه . وخرجت فتاة راع الزّين
جمالها فتسمر في مكانه. وكالت الفتاة قد سمعت به ، فإن شهرته
وصلت حتى عرب الفوز . فضحكت له وقالت تعبت به :
« الزّين ، بتمرّ سفي ؟ » وتبكم برهة ، فقد فتنه جمال الفتاة
وأخذته حلاوة حديثها ، لكنه ما لبث ان صاح بأعلى صوته :
« واكتلتي ياناس » . وامتدث رؤوس كثيرة من ابواب البيوت
وبين فرجات الحيام . وصاحت ام الفتاة : « حلّيمه الموقفك
شنو مع الدرويش دا ؟ » وهب اخوان الفتاة على الزّين ، ففر
منهم . ولكن حلّيمة ، حسناء الفوز ، أصبحت فيما بعد هوساً
عنده ، لم يفارقه إلى أن تزوجت الفتاة . فقد تسامع الناس بها
وجاء كثيرون من اثرياء البلد وشبانها المرموقين ووجهائها
يخطبونها من ابها . وتزوجها آخر الامر ابن القاضي .



كان زواج بنت العمدة وزواج حليمة نقطة تحول في حياة الزين . فقد فطنت امهات البنات الى خطورته ، كبوق يدعين به لبناتهن . في مجتمع محافظ ، تحجب فيه البنات عن الفتيان ، اصبح الزين رسولا للحب ، ينقل عطره من مكان الى مكان . كان الحب يصيب قلبه اول ما يصيب ، ثم ما يلبث ان ينتقل منه الى قلب غيره ، فكأنه سمار او دلال او ساعي يريد . ينظر الزين بعينيه الصغيرتين كميني الفار ، القابعتين في محجرين غائرين ، الى الفتاة الجميلة ، فيصيبه منها شيء - لعله حب ؟ وينوء قلبه الا بكم بهذا الحب ، فتحمله قدماء النحيلتان الى اركان البلد ، يجريها هنا وها هنا كأنه كلبة فقدت جراءها ، ويلهج لسانه بذكر الفتاة وبصيح باسمها حيثما كان ، فلا تلبث الاذان ان ترهف ، وما تلبث العيون ان تنتبه . وما تلبث يد فارس من بينهم ان تمتد فتأخذ يد الفتاة . وحين يقام العرس ، تفلش عن الزين ، فتجده اما مسخرا يملأ القلل والازيار بالماء او واقفا في منتصف الساحة عاري الصدر ، في يده فأس يكسر به الحطب او بين النساء في المطبخ يعابثن ، ويعطينه من آن لآخر قطعة من الطعام يملأ بها فمه ، وما يفتأ يضحك ضحكته التي تشبه نهيق الحمار . وتبدأ قصة حب أخرى ... وكان الزين يخرج من كل قصة حب كما دخل ، لا يبدو عليه تغيير ما . ضحكته هي مي لا تتغير ، وعبه لا يقل بحال ، وساقاه لا تكلان عن حمل جسمه الى اطراف البلد .

ورفدت على الزين سنوات خصب ، مفعمة بالحلب . فقد
اصبحت امهات البنات يخطبن وده ويستدرجنه الى البيوت
فيقدمن له الطعام ، ويسقينه الشاي والقهوة . يدخل الزين الدار
من تلك الدور ، فيفرش له السرير ، ويقدم له الفطور او الغداء
صينية واوان ، وبؤتى بعد ذلك بالشاي السادة بالنعناع اذا كان
الوقت ضحى ، والشاي الثقيل باللبن اذا كان الوقت عصرأ . وبعد
الشاي يؤتى بالقهوة بالقرفة والحبهان والجوزبيل ، سواء كان
الوقت ضحى او عصرأ . وما يسمع النساء أن الزين في دار قريبة
حتى يتقاطرن عليه . فهن يستلطفن عبثه . وتبحث الامهات
بناتهن ان يحمن ويملحن عليه . والسعيدة منهن من تقع في قلبه
موقعا ، والتي يخرج واسمها على فمه . تلك الفتاة تضمن زوجا في
خلال شهر او شهرين . ولعل الزين ، بفطرة فيه ، ادرك خطورة
مركزه الجديد ، فاصبح يتدلل على امهات البنات ويتردد قبل
ان يجيب دعوة احدهن للافطار او للغداء .

كل هذا وفي الحى فتاة واحدة لا يتحدث الزين عنها ، ولا
يعبث معها . فتاة تراقبه من بعد بعيون حلوة غاضبة ، كلما
راها مقبلة يصمت ويترك عبثه ومزاحه ، واذا رآها من بعد فر
من بين يديها وترك لها الطريق .



وروجت أم الزين أن ابنها ولي من أولياء الله . وقوى
هذا الاعتقاد صداقة الزين مع الحنين . كان رجلاً صالحاً منقطعاً
للعباداة . يقيم في البلد ستة أشهر في صلاة وصوم ، ثم يحمل أبقه
ومصلاته ويضرب مصعداً في الصحراء ، ويفيب ستة أشهر ،
ثم يعود ، ولا يدري أحد أين ذهب . ولكن الناس يتناقلون
قصصاً غريبة عنه . يحلف أحدهم أنه رآه في مروي في وقت
معين ، بينما يقسم آخر أنه شاهده في كرمه في ذلك الوقت نفسه
- وبين البلدين مسيرة ستة أيام . ويزعم أناس أن الحنين يجتمع
برفقة من الأولياء السائحين الذين يضربون في الأرض يتعبدون
والحنين قلماً يتحدث مع أحد من أهل البلد ، وإلا سأل أين
يذهب ستة أشهر كل عام ، لا يجيب . ولا أحد يدري ماذا
يأكل وماذا يشرب ، فهو لا يحمل زاداً في أسفاره الطويلة .

ولكن في البلد انساناً واحداً يأنس اليه الحنين ويهش له ويتحدث معه - ذلك هو الزين. كان إذا قابله في الطريق عانقه وقبله على رأسه ، وكان يناديه « المبروك » . وكان الزين ايضاً إذا رأى الحنين مقبلاً، ترك عبثه وهذره وأسرع اليه وعانقه. ولم يكن الحنين يأكل طعاماً في بيت أحد، إلا دار اهل الزين يسوقه الزين معه إلى أمه ويأمرها بصنع الغداء أو الشاي أو القهوة. وبظل الزين والحنين ساعات في ضحك وكلام. ويحاول أهل البلد ان يعرفوا من الزين سر الصداقة التي بينه وبين الحنين فلا يزيد على قوله : « الحنين راجل مبروك » .

كانت للزين صداقات عديدة من هذا النوع ، مع اشخاص يعتبرهم أهل البلد من الشواذ ، مثل عشيانة الطرشاء ، وموسى الاعرج ، وبخيت الذي ولد مشوهاً، ليست له شفة عليا ،جنبه الايسر مشلول . كان الزين يحنو على هؤلاء القوم ، إذا رأى عشيانة قادمة من الحقل وعلى رأسها حمل ثقيل من الحطب حمله عنها، وهش لها وداعها . كانت فتاة تخاف من كل أحد ، إذا صادفت امرأة أو رجلاً في طريقها أرتعبت وفزعت ، كأنهم وحوش مفترسة ، ولكنها كانت تأنس للزين وتضحك له ضحكتها البكماء الهزنة التي تشبه صياح الدجاج . وموسى الذي لا يذكر الناس اسمه ولكنهم يسمونه الاعرج ، رجل طاعن في السن، حين تراه مقبلاً يتفطر قلبك من كثرة ما يعاني في مشيه، الحياة بالنسبة له طريق متعب شاق كان عبدأريقاً

لرجل موسر في البلد ، ولما منحت الحكومة الرقيق حريتهم ،
 آثر موسى أن يبقى مع مولاه . كان مولاه شغوفاً به يحبه ويبره
 ويعامله معاملة الابن . ولما توفي آلت الثروة الى ابن سفيه ، فبدها
 وطرده موسى . وأدركته الشيخوخة وهو معدم لا أهل له ، ولا
 احد يعنيه أمره . فعاش على حافة الحياة في البلد ، كما تعيش
 بعض الكلاب المجوزة الضالة ، التي تأوي الى الخرابات في الليل .
 وتبحث عن القوت نهاراً في فجوات الحبي ، يتعرش بها الصبيان .
 عطف الزين على هذا الرجل ، وبني له بيتاً من جريد النخل
 وأعطاه معزة ملبنة . كان يأتيه في الصباح فيسأله كيف بات
 إليه ، ويأتيه بعد غروب الشمس ، ماثلاً جيوبه بالتمر ، وثوبه
 منتفخ بالطعام ، فيلقيه بين يديه . وأحياناً يحىء معه وقية
 شاي أو رطل سكر أو شيء من البن . وتسال موسى الاعرج
 عن الصداقة التي بينه وبين الزين فيقول لك وفي عينيه غشاوة من
 الدمع : « الزين حبابه عشرة ، الزين ود حلال » . ويرى اهل
 البلد هذه الاعمال من الزين فيزداد عجبهم . لعله نبي الله الخضر
 لعله ملاك انزله الله في هيكول آدمي زري ، ليذكر عباده ان
 القلب الكبير قد يخفق حتى في الصدر الجوف والسمت المضحك
 كصدر الزين وسمته . وبعضهم يقول : « يضع سره في اضعف
 خلقه » . ولكن صوت الزين لا يلبث ان يرتفع منادياً : « يا
 أهل الغريق ... يا ناس الحلة انا مكتول » . فتنحطم هذه
 الصورة ، وتعود صورة الزين التي يألفها الناس ويؤثرونها .

كل هذا وفي الهي صبية حلوة ، وقورة الهيا ، غاضبة
العينين ، تراقب الزين في عبث ومزاحه وهزاره . وجدته يوماً
في مجموعة من النساء يضاحكن كمادة ، فانتهرته قائلة : « ما
تخلي الطرطش والكلام الفارغ تمشي تشوف أشغالك ؟ » وحدجت
النساء بعينيها الجيلتين . سكت الزين عن الضحك وطأ طأ رأسه
حياء ثم انسل بين النساء ومضى في سبيله .



لم تصدق آمنه أذنيها . وسألت حليلة بائمة اللبن ، للمرة العاشرة : « فتى داير يعمرس منو ؟ » وللمرة العاشرة قالت حليلة : « نعمة » . مستحيل . لا بد ان الفتاة فقدت عقلها . نعمة تتزوج الزين؟ واختلطت الدمشة في صدر آمنه بالفضب وتذكرت بوضوح ذلك اليوم قبل شهرين حين بلغت كرامتها وتحاملت على نفسها وذهبت إلى أم نعمة . كانت قد حلفت ألا تكلم سعدية بعد ذلك في حياتها، فقد توفيت أم آمنه وجاء نساء البلد جميعاً يعزيناها إلا سعدية . ولم تهتم آمنه ان سعدية كانت غائبة عن البلد في الوقت الذي توفيت فيه أمها . كانت مريضة في المستشفى في مروي حيث ظلت طريحة الفراش شهراً كاملاً وحين عادت من مروي جاءت النساء جميعاً يستفسرن عن صحتها، إلا آمنه . وانقسم النساء فريقين، فريق يخطيء سعدية

ويقلن ان الواجب كان يحتم عليها ان تبدأ آمنة بالزيارة، فالمت
أكبر من المرض . وفريق من النساء يتحزب لسعدية، ويقلن ان
أم آمنة بلغت أرذل العمر على أي حال، والحفي خير من الميت
وزاد اللفظ وتعقدت المشكلة ، وأصرت كل من المراتين على
رأيها ، واصبحت آمنة لا تكلم سعدية وسعدية لا تكلم آمنة .
حتى قبل شهرين ، حين أصر ابن آمنه عليها ان تذهب وتخطب
نعمة . وبلغت المرأة كرامتها وتحاملت على نفسها ودخلت على
سعدية في دارها، وقت الضحى ، وعلى النار قهوة تغلي ، وعلى
المائدة فناجين وسكر وأشياء استقبلتها سعدية استقبالا فاترا،
وعرضت عليها القهوة بصوت بارد ، فرفضت آمنة ، ولم ترد
سعدية. لم تحلفها ولم تخصصها . لم تقل لها : « الرسول يتعرض
لك الذي عليك . الله يهديك تشربي القهوة » . لم ترد على جملة
واحدة. وتطلبت آمنة شجاعة كبيرة، لكي تحدث سعدية في
موضوع ابنها احمد، ونعمة إبنه سعدية. عرقت وجفت وبلغت
ريقها، واخيراً قالت في صوت مرتعش، وهي في داخلها تلعن
ابنها الذي عرضها لكل هذا الاحتقار : « سعدية اخي . انا
كت حاله ثاني الحياة ولا المات ما يجيبني ليكي . بحال انت من
دون الناس كلهم ابيتي تجي تمزييني في امي . لكن برضه المؤمن
مسامح ... دحيني ياخي انا عافالك . الفرض الجاني ليكي
حسح ، الشيء الجيتك من شانه ، احمد ولدي . ابو احمد وانا
عندنا رغبة في نعمه لي احمد » . ولما فرغت من حديثها، شعرت
بلسانها كقطعة من الخشب في فمها وأحست بحلقها قد تقلص

فتنحنت مرتين وارتمشت يداها . ولم تكل سعدية شيئاً . لو
أنها فاهت بكلمة واحدة لهذا روع آمنة قليلاً . حدة دائماً
تشمرها بأنها أقل منها شأناً . أنها امرأة جميلة نبيلة الملامح
والسلوك ، تحس وأنت تنظر الى وجهها الوقور السمح بثروة
أخوانها السبعة ، وأملاك أبيها الواسعة ، وتخل زوجها وشجره
وبقره ومواشيه التي لا يحصىها العد . هذه المرأة لها أولاد ثلاثة
تعلموا في المدارس واشتغلوا في الحكومة . ولها بنت جميلة يتطلع
اليها الفتيان ، والناس يذكرونها بالخير . هذه المرأة التي تجاوزت
الاربعين وهي تبدو كفتاة عذراء ، هذه المرأة القليلة الكلام ،
لماذا لاتقول شيئاً؟ واخيراً رفعت سعدية أهداب عينيها الطويلة ،
ونظرت إلى آمنة نظرة لم تفهمها . لم يكن فيها غضب أو حقد
أو عتاب أو ود . وقالت بصوتها الهادئ الذي لا يهتز ولا
يشور : « إن شاء الله خير . طبعاً الشورى عند ابو البت . وقت
يحيي نكله » . تذكرت آمنة كل هذا ، وتذكرت كيف انهم
رفضوا بعد ذلك ، متذرعين بأن نعمة ما تزال قاصراً لم تصر
للزواج بعد . والآن يزوجونها للزين - هذا الرجل الهليل الفشم
يزوجونها للزين دون سائر الناس . وشعرت آمنة كأن في الأمر
إساءة موجهة اليها شخصياً ، عن عمد . وارتفعت حليلة بائمة

اللبن حين لاحظت عيني آمنة لتسمان بالغضب . وحسبت ان
آمنة أمركت انها غشتها اللبن . فزادته وقالت لآمنة : « كان
ماكي ما زيادة عشان ما توعي » .

تتابعت الاعوام ، عام يتلو عاماً ، ينتفخ صدر النيل ، كما
يمتليء صدر الرجل بالقيظ . ويسيل الماء على الصفتين ، فيغطي
الأرض المزروعة حتى يصل إلى حافة الصحراء عند أسفل البيوت
تنق الضفادع بالليل ، وتهب من الشمال ريح رطبة مغمسة بالندى
تحمل رائحة هي مزيج من اريج زهر الطلع ورائحة الحطب
المبتل ورائحة الأرض الخصبية الظمأى حين ترقوي بالماء ورائحة
الأممك الميتة التي يلقيها الموج على الرمل . وفي اللبالي المقفرة
حين يستدير وجه القمر ، يتحول الماء إلى مرآة ضخمة مضئنة
تتحرك فوق صفحتها ظلال النخل واعصان الشجر . والماء يحمل
الأصوات إلى ابعاد كبيرة ، فإذا اقيم حفل عرس على بعد ميلين
نسمع رغايرده ودق طبوله وعزف طنابيره ومزاميره كأنه إلى

يعين دلرك . ويتنفس النيل الصمداء ، وتسليقظ ذات يوم فإذا
صدر النيل قد هبط وإذا الماء قد انحسر عن الجانبين ، يستقر في
مجرى واحد كبير يمتد شرقاً وغرباً ، تطلع منه الشمس في الصباح
وتغسل فيه عند المنيب . وتنظر فإذا أرض ممتدة ريانة ملساء
ترك عليها الماء دروباً رشيقة مصقولة في هروبه الى مجراه الطبيعي .
رائحة الأرض الآن تملأ أنفك ، فتذكر كبرائحة النخل حين
ينبأ القحاح . الأرض ساكنة مبتلة ، ولكنك تحس أن بطنها
ينطوي على سر عظيم . كأنها امرأة عارمة الشهوة تستعد
للاقاء بعلمها . الأرض ساكنة ولكن احشائها تضج بماء دافق ، هو
ماء الحياة والحصب . الأرض مبتلة متوثبة ، تنبأ للعطاء . ويظمن
نبيء حاد احشاء الأرض . لحظة نشوة والموعطاء . وفي المكان
للذي ظمن في احشاء الأرض ، تتدفق البذور . وكلما يضم رحم
الانثى الجنين في حنان ودفء وحب ، كذلك ينطوي باطن
الأرض على حب القمح والذرة واللوبيا . وتتشقق الأرض
عن نبات وثمر .

تذكر نعمة وهي طفلة ان النساء كن اذا جئن لزيارة امها
 كن يجلسنها على حجورهن ، ويمسحن بايديهن على شعرها الغزير .
 المتهدل على كتفها ، ويقبلنها على خدها وشفتها ويدغدغنها ،
 ويضممنها الى صدورهن . وكانت تقف ذلك ، وتتولى في
 اذرعهن ، ومرة ضجرت من عبث امرأة بدينة بها ، وشمرت
 بذراعي المرأة الغليظتين تنطبقان عليها ، كأنها فكا حيوان
 مفترس ، ويردفي المرأة المثقلة وعطرها القوي ، كأنها تخنقها .
 وتلمت نعمة وحاولت ان تتخلص من قبضة المرأة . ولكن المرأة
 ضمتها الى صدرها بقوة وانقضت على وجهها بشفتيها المكتنزتين
 تقبلها على رقبتها وعلى خدها ، وتشمها . صفعها نعمة على وجهها

صفعة قاسية . وذعرت المرأة وانفك ذراعاها وأنفلتت نعمة وتركت الغرفة . ولما كبرت ولم تعد طفلة ، أصبحت رؤوس النساء والرجال على السواء تلتفت اليها ، حين تمر بهم في الطريق . لكنها لم تكن تأبه لجمالها . وتذكر ايضاً كيف ارغمت اباهان يدخلها في الكتاب لتتعلم القرآن . كانت الطفلة الوحيدة بين الصبيان . وبعد شهر واحد تعلمت الكتابة ، وكانت تستمع الى صبيان يكبرونها يقرأون سوراً من القرآن ، فتستقر في ذهنها . واقبلت على القرآن ، تحفظه بنهم ، وتستلذ بتلاوته . وكانت تعجبها آيات معينة منه ، تنزل على قلبها كالخبر السار . كانت تؤثر بما حفظته سورة الرحمن وسورة مريم وسورة القصص ، وتشعر بقلبها يعتصره الحزن وهي تقرأ عن أيوب وتشعر بنشوة عظيمة حين تصل الى الآية « واتينا اهلهم ومثلهم معهم رحمة من عندنا . » وتتخيل رحمة امرأة رائعة الحسن متفانية في خدمة زوجها ، وتتمنى لو أن اهلها اسموها رحمة . كانت تحلم بتضحية عظيمة لا تدري نوعها . تضحية ضخمة تؤديها في يوم من الايام ، فيها ذلك الاحساس الغريب الذي تحسه حين تقرأ سورة مريم ونشأت نعمة ، طفلة وقورة ، محور شخصيتها الشعور بالمسؤولية . تشارك امها في اعباء البيت ، وتناقشها في كل شيء ، وتحدث الى ابياها حديثاً فاضحاً جريئاً يذهله في بعض الاحيان . كان اخوها الذي يكبرها بعامين يحثها على مواصلة التعليم في المدارس ويقول لها : (يمكن تبقي دكتورة ولا محامية) . ولكنها لم تكن تؤمن بذلك النوع من التعليم . تقول

لاخيا وعلى وجهها ذلك الفناع الكثيف من الوراق : (التعليم في المدارس كله طوطشة . كفاية القراءة والكتابة ومعرفة القرآن وفرايض الصلاة) . ويضعك اخوها ويقول : (باكر يجي ود حلال يعرسك وتنفعك من حججك) . افراد اسرتها يقولون لها هذا مع احساس بالخوف ، فهم يدركون ان هذه الفناة الغاضبة المينين الوقورة الحيا ، تضم صدرها على امر تخفيه عنهم . ولما بلغت السادسة عشرة بدأت أمها تتحدث عن الفتيان الذين يصلحون ازواجاً لها ، الغني والمتعلم والوسيم والذي امه وابوه يصلحان اصهاراً . ولكن نعمة تهز كنفها ولا تقول شيئاً . ولما جاءت آمنة الى سعدية تحدثها في امر زواج نعمة من احمى وقالت لها سعدية : (الشورى عند ابو البت) كاذت تعلم في قرارة نفسها ان (الرأي) لا لأحد غير نعمة نفسها . وكان لابد من خيارها . فهزت كنفها وقالت : انا لي الليلة ما بقيت للعرس) وكان من العبت مناقشتها ، خاصة وأن سعدية لم تكن متحمسة لأن تصبح حاة لآمنة . لم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى ظهر خطيب آخر : ادريس . فتيات كثيرات في البلد كن يتمنين أن يصبحن زوجات له ، فقد كان متعلماً ، يعمل مدرسا في مدرسة ابتدائية . وكان دمث الأخلاق ، حسن السيرة بين اهل البلد ومع أن عائلته لم تكن من العوائل ذوات الأصل ، التي يشار اليها في البلد ، إلا أن أباه كون لنفسه مكانة بين الناس بحده وحسن عشرته . كانت اسرة طيبة ميسورة الحال . وكان حاج ابراهيم والد نعمة ، وامها سعدية ، واخوانها الثلاثة ، يميلون إلى قبول

اوريس . بيد أن نعمة كان لها رأي غير ذلك . هزت كتفيها وقالت : (ما بدوره) . واحتد حاج ابراهيم في كلامه معها وممّ بصفمها . ولكنه توقف فجأة . شيء ما في محياقتك الفتاة العنيدة قتل الفضب في صدره . لعله تعبير عينيها ، لعله التصميم الرزين على وجهها . وكأنما أحس الرجل بأن هذه الفتاة ليست عاقبة ولا متمردة . ولكنها مدفوعة بإيعاز داخلي إلى الإقدام على أمر لا يستطيع أحد ردها عنه . ومن يومها لم يكلمها أحد في أمر الزواج .

وكانت نعمة حين تفرغ إلى نفسها وأفكارها ، وتخطر على ذهنها خواطن الزواج ، تحس أن الزواج سيجيشها من حيث لا تحسب . كما يقع قضاء الله على عباده . مثل ما يولد الناس ويموتون ويمرضون . مثل ما يبيض النيل ، وتهب العواصف ، ويشمر النخل كل عام ، كما ينبت القمح ويطل المطر وتبدل الفصول كذلك سيكون زواجها ، قسمة قسمها الله لها في لوح محفوظ قبل أن تولد ، وقبل أن يجري النيل ، وقبل أن يخلق الله الأرض وما عليها . لم تكن تحس بفرح أو خوف أو اسى حين تفكر في هذا ، ولكنها كانت تشمر بمسؤولية كبيرة ستوضع على كتفيها في وقت ما ، قد يكون قريباً ، وقد يكون بعيداً . صاحباتها في الحي ، كل فتاة تشب وفي ذهنها صورة معينة عن الفارس الذي يربط فرسه ذات مساء ساجي الضوء خارج الدار ، ويدخل ويختطفها من بين أهلها ، ويهرب بها بعيداً إلى عوالم سحرية من

السعادة ورغد العيش. أما نعمة فلم ترسم في ذهنها صورة محددة.
كبرت، وكبر معها حب فياض ستسبفه يوما ما على رجل ما
قد يكون الرجل متزوجاً له أبناء، يتزوجها على زوجته الأولى
قد يكون شاباً وسيفاً متعلماً، أو مزارعاً من عامة أهل البلد
مشفق الكفين والرجلين، من كثرة ما خاض الرجل وضرب
بالمحول. قد يكون الزين... وحين يخطر الزين على بال نعمة
تحس إحساساً دافئاً في قلبها، من فصيلة الشعور الذي تحسه الام
نحو أبنائها. ويمتزج بهذا الإحساس شعور آخر، بالشفقة. يخطر
الزين على بالها كطفل يتيم عديم الأهل، في حاجة الى الرعاية
انه ابن همها على كل حال، وما في شفقتها عليه شيء غريب.



لم تكن أم الزين تبالي أين يقضي الزين ليله، فقد كان كروح
 قلق ليس له مستقر . حينئذ أقيم عرس تجدد الزين : في فربق
 الطلحة أو عند عرب القوز ، في قبلي أو بحسرى ، لا يجبه
 برد، ولا عاصفة تهب بالليل ، ولا النيل الطامي في موسم
 فيضانة . تلتقط أذنه بحساسية تادره زغاريد النساء على بعد
 أميال، فيضع ثوبه على كتفه ويهرول كأن شيئاً يجذبه إلى
 مصدر الصوت . وأحياناً يسطم النور فجأة من وراء كتيبان
 الرمل ، حين تعدو السيارات آتية من أمدردمان، فإذا شخص
 تخيل يحث في الرمل يميل بجسمه إلى الأمام قليلاً وعينه تنظران
 إلى الأرض ، يحث الخطى متجهاً شرقاً . يرى الركاب الزين
 فيملون ان ثمة حفل عرس في طرف الحي، فاما صاحوا به حين

يبررون عليه ، واما اوقفوا السيارة وتحرشوا به . واجياناً يسير ووراءه كوكبة منهم . وتقترب زغاريد النساء . وتتضح معالمها ويستطيع الزين أن يميز النساء ، أية امرأة زغردت . ثم تبدو الانوار وتبدو اشباح مجتمعة تصعد وتهبط كأنها شياطين في وادي الجن . ثم يظهر الفبار الذي تثيره ارجل الناس في رقصها ، يتشبث بخيوط الضوء . وفجأة ينشق الليل عن فداء يمرقه كل احد : « عوك يا أهل العرس ، يانس الرقيص ، الزين جا كم » . وإذا الزين قد قفز كالقضاء واستقر في حلقة الرقص . ويفور المكان فجأة ، فقد نفث فيه الزين طاقة جديدة . ومن بعيد يسمع المرء صيحاتهم يرحبون به : « ابشر . ابشر . حبابك عشرة » . وحين تموت أصوات النساء في حلقهن ، وتطفأ الأنوار ، ويتراوح الناس الى دورهم قبيل طلوع الفجر ، يسند الزين رأسه الى حبر أو إلى جذع شجرة ، وينتاه برهة فوماً خفيفاً كنوم الطير . وحين يؤذن المؤذن لصلاة الفجر ، يقفل عائداً إلى أهله ، فيوقظ أمه لتصنع الشاي .

بيد ان المؤذن قد أذن ذات صباح ، ولم يعد الزين . واحمر الأفق الشرقي قبيل طلوع الشمس ، ثم ارتفعت الشمس قدرقامة الرجل ولم يعد الزين . وأحست أم الزين برجفة خفيفة في جنبها الأيسر فلم تستبشر خيراً . إنها تعتقد أن جنبها الأيسر إذا رجف فإن شراً سيلم بها أو بأحد ذويها لا محالة . وهمت ان تذهب لعم الزين . ولكنها سمعت حركة عند باب الحوش وسمعت باب

الحوش الكبير بصر، ثم سمعت خبطة قوية، وفجأة رأيت أمامها
 شيئاً مريباً . فصرخت صرخة سمعها حاج ابراهيم الموحدة في
 رابع بيت وهو جالس على مصلاته يشرب قهوة الصباح امتلات
 الدار بالناس رجالاً ونساء وحلوا أم الزين فاقدة الوعي، وانشق
 الناس نصفين، نصفاً راح مع الأم، ونصفاً أغلبهم من الرجال
 التفوا حول الزين . كان على رأسه جرح كبير يصل إلى قريب
 من عينه اليمنى، وصدره وثوبه وسرواله ملطخة بالدم . وفقد
 الناس رشدهم، واخذ عبد الحفيظ يصيح في الزين وقد احمرت
 عيناه من الغضب: « كلمنا من عمل فيك العمله دي؟ مين الكلب
 المجرم الضربك؟ » وتصارخت النساء وبعضهن أخذن في البكاء
 وكانت نعمه تقف عن بعد، صامتة، وعيناها مركزان على
 وجه الزين، وقد حل محل الغضب فيها حنو عظيم . وقال
 حاج ابراهيم: « الحكيم » . وكان للكلمة وقع الماء على النار،
 فبدأ عويل النساء، وصاح محبوب: « الحكيم »، وصاح
 عبد الحفيظ: « الحكيم »، وانطلق احمد اسماعيل على حماره ليحضره.
 ولما عاد الزين من المستشفى. في مروي حيث ظل اسبوعين
 كان وجهه نظيفاً يلح، وثيابه بيضاء ناصعة . وضعك فلم يرَ
 الناس كما عهدوا سنين صفراوين في فمه، ولكنهم رأوا صفاً من
 الأسنان اللامعة في فكه الأعلى، وصفاً من أسنان كأنها من صدف
 البحر في فكه الأسفل . وكأنما الزين تحول إلى شخص آخر.
 وخطر لنعمة وهي واقفة بين صفوف المستقبلين أن الزين في
 الواقع لا يخلو من وسامة .

وخال الزين بعد ذلك زمناً طويلاً ولا حديث له إلا رحلته
لمروى. كان يلذ له ان يجتمع حوله رفاقه القدامى، محبوب،
وعبد الحفيظ، واحمد اسماعيل، وحمد ود الرئيس، والطاهر
الرواسي، وسعيد التاجر، فيحكى لهم ما جرى له.

« اول ما وصلت يا زول قلعوني هدومي ولبسوني هدوماً
نظاف .. السرير يرقش. الملايات بيض زي اللبن. والبطاطين
والبلاط يزلن الكراخ ... » وقاطمه محبوب متحرشاً :
« خللك من البطاطين والبلاط . كرشك الكبيرة دي ملوها
ليك بي شنو ؟ » وارتجف فم الزين كأنه مقبل على وليمة :
« هلاّ هلاّ . الأكل في استبالية مروى ولا بلاش . هو عاد
جنس اكل . شين سمك شين بيض شين لحم شين دجاج . » .
وقاطمه محبوب مرة اخرى : « الاكل في الاستباليات مافلوا
شوية ؟ كيفن كت بتشبع ؟ » وابتسم الزين ابتسامة كبيرة
مدبرة ، حتى يظهر اسنانه الحديدية : « بحال التمرجية كانت
صاحبتي قعد قدام الاكل ، وصاح عبد الحفيظ : « اي لا اله
الا الله .. آمنوح . كان مشيت تتلهبس على التمرجيات ؟ »
وارتج جسم الزين بضحك مكتوم : « اي ... اي ... امانة يا
زول مي شافتمن سميحة » . وتدخل ود الرواسي بعد ان كان
يستمع ويضحك دون ان يقول شيئاً : « عليك الرسول ! الزين
كدي وصفها لنا » . والتفت الزين خلفه كأنه يخاف أن يسمعه
أحد ، وخفض صوته : « عليك أمان الله يا زول عليها كبر »

صلبَن . . وانقطع حبـل الحديث وقتاً ، فقد ضج المجلس بالضحك . وحين استجمع حمد ود الرئيس أنفاسه قال ، وما يزال في صدره بقية من ضحكك : « شن سويت معاها آ مقطوع الطاري ؟ » واصل الزين حديثه كأنه لم يسمع هذا السؤال الأخير : « بنيتين سميحة من أمدرمان . مَرها . ماها مشلخة » . وزحف ود الرواسي قريباً من الزين وأعاد سؤاله بطريقة أخرى : (أنت شن أوراك كَبُرَ صلبها ؟) وقال الزين على الفور : (قالوا لك أنا عيمان ؟ الشي وقت يبقى قدامي ما بشوفه ؟ ، وكان محجوب سر من هذا الرد فقال وهو ينظر إلى ود الرئيس : (الدا هي نجحـض . ساكت قايلنه عويد) . ووضع الزين يديه خلف رأسه ومال إلى الوراء قليلاً ، ثم قال ببطء وعلى وجهه ابتسامة خبيثة : (دايرين يا جماعة تعرفو شن سويت لها ؟) وقال ود الرئيس بلمهة : (الرسول آ الزين حدثنا شن سويت لها) . واتسعت ابتسامة الزين ، ثم فتح فمه ليتكلم ، فانعكس شيء من ضوء المصباح الكبير المعلق في دكان سعيد على أسنانه . وفجأة ، وفي وقت واحد ، قفز الزين واقفاً كأن عقرباً لدغته ، وقفز أحمد اسماعيل ، وقفز محجوب والطاهر الرواسي ، وحمد ود الرئيس . وصاح عبد الحفيظ : (امسكوه) . لكنه كان أسرع منهم . في لمح البصر كان الزين قد أمسك بالرجل ورفع في الهواء بعنف ثم رماه في الأرض . ثم شده من رقبته . وانكبوا كلهم عليه ،

أحمد إسماعيل أمك بذراعه اليمنى ، وعبد الحفيظ أمك
بذراعه اليسرى ، والطاهر الرواسي أمك به من وسطه ،
وحدود الرئيس أمك بساقه ، وكان صيد بزن شينا في
دكانه ، فخرج مشرعاً وأمك بساقي الزين أيضاً ، لكنهم
لم يفلحوا .

تدفقت في جسم الزين النحيل قوة مريمة جبارة لا طاقة
لأحد بها . أهل البلد جميعاً يعرفون هذه القوة الرهيبة وهياوتها ،
وأهل الزين يبذلون جهمهم حتى لا يستعملها الزين ضد أحد .
انهم يرتعدون روعاً كلما ذكروا أن الزين أمك مرة بقرني فور
جامح استغزه في الحقل ، أمك به من قرنيه . ورفعته عن
الأرض كأن حزمة قش وطرح به ثم القاه أرضاً مهشم العظام ،
وكيف انه مرة في فورة من فورات حماسه قلع شجرة سنط
من جذورها وكأنها عود ذرة . كلهم يعلم أن في هذا الجسم
الضاهي قوة خارقة ليست في مقدور بشر ؛ وسيف الدين ،
هذه الفريسة التي انقض عليها الزين الآن ، انه لا محالة هالك .
واختلطت اصواتهم برهة . كان الزين يردد في غضب : (الحمار
الذكر لازم أكله) - والحمار الذكر أقصى ذم يلحقه الزين
برجل . وأرتفع صوت عبد الحفيظ في توتر وخوف : (الرسول
الزين . عليك الله خليه) . وأخذ محبوب يشتم في يأس .
وكان أحمد إسماعيل أصغرم سناً وأقوام ، ولما أعيتته الحيلة
عض الزين في ظهره . وكان الطاهر الرواسي رجلاً مشهوراً

بقوته . كان في بحته عن السمك في الليل يوم النيل ذهاباً
وجيئة وينطس في الماء نصف الساعة فلا ينقطع نفسه . لكن
قوته لم تكن شيئاً يحاذب الزين . وفي ضوضائهم سمعوا شخيراً
يصدر من حلق سيف الدين ، ورأوه يضرب برجله الطويلتين
في الهواء . وصاح محجوب : (مات . كله) .

لكن صوت الحنين أرتفع هادئاً وقوراً فوق الضجة :
(الزين . المبروك . الله يرضى عليك) وأنفكت قبضة الزين
ووقع سيف الدين على الأرض ، هامداً ساكناً . ووقع الرجال
الستة دفعة واحدة ، فقد فاجأهم صوت الحنين وباغتهم الزين
بسكوته المفاجيء ، فكان حائطاً أمامهم كانوا يدفعونه ،
أنهد بقتة . ومضت برهة قصيرة جداً ، مقدار طرفة العين
ساد فيها صمت كامل ، لا بد أنه كان صمتاً مزيجاً من رعب
وحيرة وأمل . بعد ذلك جاشت الحياة فيهم مرة أخرى
وتذكروا سيف الدين . أنكبت رؤوسهم عليه ، ثم صاح
محجوب بصوت فرح مرتمش (الحمد لله . الحمد لله) . وحملوا
سيف الدين ووضعوه على كنبه أمام دكان سعيد . وفي أصوات
متوترة خافتة أخذوا يعيدونه إلى الحياة . حينئذ فقط
تذكروا الزين ، فرأوا جالساً على مؤخرته ويداه بين ركبتيه
مطأطأ رأسه . وكان الحنين قد وضع يده على كف الزين في
حنان بالغ . كان يتحدث إليه في صوت حازم لكنه مليء
بالحب : (الزين المبروك . ليه عملت كده ؟)

وجاء محبوب وأنتهر الزين ، لكن الحنين نظر اليه نظرة
أسكنته. وبعد برهة قال محبوب للحنين : لو ما كت جيت
يا شيخنا كان كتله . وأنضم اليهم أحمد اسماعيل والطاهر
الرواسي. وبقي عبد الحفيظ وسعيد التاجر وحد ودالريس مع
سيف الدين . وبعد برهة قال الزين وهو مساي زال مطأطيء
الرأس ، مردداً كلام محبوب : « ان كت ما جيت يا شيخنا
كت كتله . الحمار الذكر . وقت ضربني في راسي بالفاس قايل
ماش اسكت له ، » .

لم يكن في صوته غضب . كان صوته أقرب الى مرحة الطبعي
منه الى الغضب . وصرت في الحاضرين رعشة مرج خفيفة ،
لكنهم ظلوا صامتين . وقال الحنين : (لكن انت ما كت
غلطان ؟)

وظل الزين صامتاً . فقال الحنين مواصلاً كلامه (متين
سيف الدين ضربك بالفاس في رأسك ؟ فأجاب الزين ضاحكاً
ووجهه مشبع بالمرح : (وقت عرس أخته) . واستمر الحنين
وفي صوته هو الآخر رنة مرح : (شن سويت لي أخته يوم
عرسها ؟)

(أخته كانت دايراني انا . مشو عرسوها للراجل الباطل دالك)
وضحك أحمد اسماعيل بالرغم منه . وقال الحنين في صوت
أكثر رقة وحناناً : (كل البنات دايراتنك يا لبروك . باكر

أحسن بت في البلد دي). واحسن معجوب بخفة خفية
 في قلبه . كان فيه رهبة دفينه من اهل الدين ، خاصة النساك
 منهم أمثال الحنين . كان يحلمهم ويبتعد عن طريقهم ولا يتعامل
 معهم . وكان يحاذر نبوءاتهم ويحس بالرغم من عدم اهتمامه
 الظاهري ، بأن لها أثراً غامضاً . (نبوءات هؤلاء النساك
 لا تذهب هدراً) ، يقول في سره . لعل هذا هو الذي جعله
 يقول بصوت مرتفع فيه رنة واحتقار : (منو البترعس البهم دا؟
 كان على العلية ، داير يحيب لنا جنيته) . ونظر الحنين الى
 معجوب نظرة صارمة ، ارتدعت لها فرائص معجوب لولا انه
 تشجع ، وقال : (الزين هو بهم . الزين مبروك . باكر يعرف
 احسن بت في البلد) . وفجأة ضعك الزين ضحكة بريئة ،
 ضحكة طفل ، وقال : (كت داير أموته . الحمار الدصور .
 يفلقني بالفاس عشان اخته دايراني انا ؟) فقال الحنين بحزم :
 (دهين دايرنك تصالحه . خلاص الفات مات . هو ضربك .
 وأنت ضريبته) . ونادى سيف الدين ، فجاء بقامته الطويلة
 وحوله سميد وعبد الحفيظ وحمد ود الرئيس . فقال الحنين للزين
 (قوم سلم غوق رأسه) . فقام الزين دون أي اعتراض وامسك
 برأس سيف الدين وقبله . ثم أهوى على رأس الحنين واشبعها
 قبلاً وهو يقول : (شيخنا الحنين . ابوا المبروك) . وكانت لحظة
 مؤثرة أثارت الصمت في نفوس اولئك الرجال . ودمعت عينا
 سيف الدين وقال للزين : (انا غلطان في حقك . سامعني)
 وقام وقبل رأس الزين ثم امسك بيد الحنين وقبلها . وجاء

الرجال كلهم ، محبوب ، وعبد الحفيظ ، وحمد ود الرئيس ،
والطاهر الرواسي، واحد اسماعيل، وسعيد التاجر، كل واحد
منهم امسك بيد الحنين في صمت وقبلها . وقال الحنين بصوته
الرقيق الوديع : (ربنا ببارك فيكم . ربنا يحمل البركة فيكم)
ووقف وامسك ابريقه في يده . فسارع محبوب يستضيفه :
(لازم تتمشى معنا الليلة) . لكن الحنين رفض بلطف وقال
وهو يمسك بيده الاخرى كتف الزين : (المشا في بيت
المبروك) . وغابا معا في الظلام . رف على رأسها برهة قبس
من ضوء المصباح المعلق في دكان سعيد ، ثم انزلت الضوء عنها
كما ينزلق الرداء الحريري الأبيض عن منكب الرجل . ونظر
محبوب الى عبد الحفيظ ونظر سعيد الى سيف الدين، ونظروا
كلهم بعضهم الى بعض وهزوا رؤوسهم .

بعد هذا الحادث باعوام طويلة ، حين اصبح محبوب جداً
 لاحفاد كثيرين ، كذلك اصبح عبد الحفيظ والطاهر الزواسي
 والباقون ، وحين اصبح احمد اسماعيل ابا وصارت بناته للزواج ،
 كان اهل البلد - وبينهم هؤلاء - يعودون بذاكرتهم الى ذلك
 العام ، والى حادثة الزين والحنين وسيف الذي وقع امام دكان
 سميد. الذين اشتركوا في ذلك الحادث يذكرونه برهبة
 وخشوع ، بما فيهم محبوب الذي لم يكن يابه لشيء من قبل.
 لقد تأثرت حياة كل واحد من اولئك الرجال الثانية ، ابطال
 الحادث ، بطريقة أو بأخرى . وفي مستقبل ايامهم ، يستعيد
 هؤلاء الرجال الثانية ، يستعيدون فيها بينهم ، آلاف المرات ،
 تفاصيل الحادث . وفي كل مرة ، كانت الحقائق تتخذ وقفاً اكثر
 سحراً. يذكرون في عجب كيف ان الحنين هل عليهم من حيث
 لا يعلمون ، في اللحظة ، عين اللحظة ليس قبل ولا بعد ، حين
 ضاقت قبضة الزين على خناق سيف الدين وكادت تودي به ،
 بل أن بعضهم يحزم ان سيف الدين قد مات بالفعل: لفظ نفسه
 الاخير ، ووقع على الارض جثة هامدة . وسيف الدين نفسه
 يؤكد هذا الزعم . يقول انه مات بالفعل . وفي اللحظة التي

ضاقَت فيها قبضة الزين على حلقه ، يقول انه خاب عن الدنيا
البئنة ، ورأى تمساحاً ضخماً في حجم النور الكبير فالتجأ فيه .
وانطبق فكا التمساح عليه ، وجاءت موجة كبيرة كأنها الجبل .
فمطمت التمساح في هوة سحيقة ليس لها قرار . في هذا الوقت ،
يقول سيف الدين انه رأى الموت وجهاً لوجه . ويحزم عبد
الحفيظ ، وقد كان اقرب الناس الى سيف الدين حين عاد الى
وعيه ، ان اول كلمات فاه بها ، حين جاش النفس في رثيته من
جديد ، اول شيء تفوه به حين فتح عينيه ، انه قال : « اشهد
الا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله » .

ومهما يكن فيما لا شك فيه ان حياة سيف الدين ، منذ
تلك اللحظة ، تغيرت تغيراً لم يكن يحلم به أحد . كان سيف
الدين الابن الوحيد للبدوي الصائغ - سمي الصائغ لان تلك
كانت حرفة في بداية حياته ، ولما اوى ولم يعد صائغاً ، لصق
به الاسم فلم يفارقه . كان البدوي رجلاً موسراً ، ولعله اوى
رجل في البلد . جمع بعض ثروته بمرق جبينه ، ومن الصياغة
والتجارة والسفر ، وبعضها آل اليه عن طريق زوجته . كان كما
يقول اهل البلد ، رجلاً (اخضر الذراع) ، لا يمس شيئاً الا
تحول بين يديه الى مال . في اقل من عشرين عاماً ، كون من
العدم ، ثروة بعضها ارض وضياع ، وبعضها تجارة منتشرة على
طول النيل من كرمة الى كرمة ، وبعضها مراكب موسقة
بالتمر والبضائع تجوب النهر طولاً وعرضاً ، وبعضها ذهب كثير
تلبسه زوجته وبناته في شكل حلي يملأ رقابهن وايديهن .

ونشأ سيف الدين ولدأ واحداً بين خمس بنات ، تدله امه ،
 ويدله أبوه ، وتدله اخواته الخمس . فكان لا بد ان يفسد . ار
 كما يقول اهل البلد ، كان لا بد ان يفسد هشا رخوا ، كالشجيرة
 التي تنمو في ظل شجرة اكبر منها ، لا تتعرض للريح ولا تروى
 ضوء الشمس . مات البدوي وفي حلقه غصة مريرة من أبنه ،
 انفق عليه مالا كثيراً لكي يتعلم ، فلم يفلح . وانشأ له متجراً في
 البلد فأفلس في شهر . ثم احلقه برشة ليتعلم الصناعة فهرب .
 وبعد لأي ، ووساطة وتشفع ، نجح في تعيينه موظفاً صغيراً في
 الحكومة لعله يتعلم كيف يعتمد على نفسه . لكن لم تقضي أشهر
 حتى جاءت له الأنباء تترى ، من أفواه الأعداء والأصدقاء ، من
 الشامتين وألشفقين على السواء ، أن أبنه يبيت ليله كله في خماره
 ولا يرى المكتب إلا مرة أو مرتين في الأسبوع ، وأن رؤسائه
 انذروه مراراً وهددوا بفضله من العمل . فسافر الرجل الى
 المدينة وعاد يسوق أبنه كالسجين . وحلف ليسجنه طول حياته
 في الحقل - كالعبد الرقيق ، هكذا قال .

ومضى عام على سيف الدين وهو يجمع العلف للبقر ويرعى
 الماشية على أطراف الحقل سحابة نهاره ، يزرع ويحصد ويقطع
 ويتأوه . ومع ذلك فلم يعدم تسلية بالليل . كان يعرف أماكن
 صنع الخمر ، ويصادق الجوارى اللائي يصنعنها - (الخدم) ؛
 كما يقول أهل البلد . كن رقيقاً أعطي حريته ،
 بعضهم هاجرون من البلد ، وتزوجن بعيداً عن موطن
 رقبهن . وبعضهن تزوجن الرقيق المعتقين في البلد وعشن

حياة كريمة، بينهن وبين سادتهن السابقين ود وتواصل وبعضهن لم تستهوهن حياة الاستقرار ، فبقين على حافة الحياة في البلد ، محطاً لطالب الهوى واللذة. والحق ان مجتمع الجواري هذا كان شيئاً غريباً، فيه روح المفامرة والتمرد والخروج على المألوف. هنالك في طرف الصحراء، بعيداً عن الحى، تقع بيوتهن المصنوعة من القش . بالليل ، حين ينام الناس ، ترتعش من فرجاتها أضواء المصابيح وتسمع منها ضحكات مخمورة نشوى. ضاق بها أهل البلد فأحرقوها، لكنها عادت الى الحياة مثل نبات الحلفاء، لا يموت . وطردها سكانها وعذبهم بشتى السبل ، لكنهم لم يلبثوا ان تجمعوا من جديد ، كالذباب الذي يحط على بقرة ميتة. وكمن شاب مراهم، خفق قلبه في جنح الظلام حين حمل اليه الليل ضحكات الجواري وصياح الخمورين . في تلك (الواحة) على حافة الصحراء ، شيء غريب ، لذيذ رهيب ، يغري بالاستكشاف . ولم يكن عسيراً على سيف الدين ان يجد طريقة اليها . هنالك كان يقضي ليلته ، وكانت له من بينهن خلية . كل هذا تحمله ابوه في صبر. كانت الأخبار تأتيه ، فكان يتفانى أحياناً، وأحياناً يثور . لكن صبره نفذ حين جاءه سيف الدين ذات ليلة، وهو على سجاده بعد صلاة العشاء . كانت تفوح من فمه رائحة الخمر. وقال له، بصوت أجش من فعل الشراب والسمر ، انه يحب السار (احدى الجواري) ويريد ان يتزوجها . اسودت الدنيا في وجه الرجل وفقد صوابه . ابنه الوحيد سكران ، فاسق ، يقول له ، وهو على مصلاته ، انه

« يجب » - الكلمة التي تثير في عقول الآباء في البلد كل معاني البطالة والخنول وعدم الرجولة - وانه يريد أن يتزوج جارية ماجنة فارغة العين... قام الأب وضرب ابنه ضرباً قاسياً مبرحاً. وجاءت الأم تولول ، واجتمع الناس ، وأخيراً خلصوا الابن من يد الأب وهو بين الحياة والموت . وحلف الأب أن الولد الفاسق - هكذا قال - لا يبيت ليلة واحدة تحت سقف بيته ، وانه ليس ابنه وانه براء منه . قضى سيف الدين ليلته في بيت خاله ، وفي الصباح اختفى . وعاش البدوي الصائغ بقية حياته مثل رجل به عاهة . كان الألم يحز في قلبه ، ووجهه نحيل معروق كوجوه المرضى بالسل . كان يقول ان ابنه مات ، وكان أحياناً إذا خافه لسانه وذكر ابنه ، يذكره كأنه مات بالفعل .

وكانت تترى على البلد أخبار مريمة عن سيف الدين ، كيف أنه سجن في الخرطوم بتهمة السرقة ، وكيف انه اتهم مرة بقتل رجل في بور سودان وكاد يشنق لولا انهم وجدوا القاتل الفعلي في النهاية . وكيف أنه يعيش « صائغاً » سفياً فاسقاً مع العاهرات في كل مدينة يحل فيها . يقولون مرة انه يعمل حالاً يحمل بالات القطن على ظهره في الميناء . ومرة يقولون انه يعمل سواً لسيارة شاحنة بين الفاسر الأبيض وأحياناً يقولون انه يزرع القطن في طوكر . وحاول أعمامه وأخواله إقناع أبيه بأن يكتب وصية يترك فيها ثروته كلها لزوجته وبناته . كل الرجال العقلاء في البلد آمنوا أيضاً على صواب

هذا الرأي لكن الأب كان ينهرب دائماً ويتعلل بأنه سيفعل ذلك حين يحس بدنو أجله ، وأنه ما زال قوياً لا حاجة به إلى كتابة وصية. لكن الرجال العقلاء كانوا في مجالسهم يهزون رؤوسهم حسرة ، ويقولون ان البدوي ما زال يأمل ان ابنه سيمود إلى صوابه . شيء ما ؛ لم يفهمه أهل البلد، منع الرجل من اتخاذ الخطوة الحاسمة : حرمان ابنه من الميراث .

وفي ليلة من ليالي شهر رمضان ، مات البدوي على مصلاته بعد أن صلى التراويح . كان رجلاً طيباً فمات ميتة كل الرجال الطيبين : في شهر رمضان ، في الثالث الأخير منه ، وهو الثالث الأكثر بركة ، على مصلاته ، بعد أن صلى التراويح . وهز أهل البلد رؤوسهم وقالوا « يرحم الله البدوي . كان رجلاً طيباً . كان يستأهل ابناً خيراً من ابنه الفاسق ذاك » . وذات يوم ، والناس ما زالوا على (فراش البكاء) وقد فرغوا لتوهم من إقامة (الصدقة) دخل عليهم سيف الدين . كان يحمل في يده عصا غليظة من النوع الذي يستعمل في شرق السودان . ولم يكن معه متاع على الاملاق . كان شعره منفوشاً كأنه شجيرة سيال ، ولحيته كثة متسخة ، ووجهه وجه رجل عاد من الجحيم . لم يسلم على أحد، وتجنبته كل الميول . لكن عمه الأكبر قام وبصق على وجهه . واما وصل النباً بقدمه إلى أمه في الجناح الآخر من البيت وهي وسط الحريم على (فراش البكاء) ولولت من جديد كأن زوجها مات لتوه ، ولولت أخوات سيف الدين ، وعماته

وخالاته ، وفار جناح الحرم في البيت وماج . إلا أن العم قام اليهن وأنتهرهن فسكنن .

كل هذا لم يمنع سيف الدين ان يضع يده على أموال أبيه ، كل ما أستطاع عمله أعمامه وأخواله أنهم خلصوا نصيب أمه وأخواته ، وبقي أغلب الثروة في يده . هنا أيضاً تبدأ حياة العذاب لموسى صديق الزين - موسى الأعرج - كما يسميه أهل البلد . طرده سيف الدين بحجة أنه لم يعد رقيقاً ، وأنه ليس مسؤولاً عنه . وعاش سيف الدين بعد هذا حياة مستهترة ، زاد في استهتارها توفر المال في يده . كان في سفر متواصل ، مرة في الشرق ومرة في الغرب ، يقضي شهراً في الخرطوم وشهراً في القاهرة وشهراً في اسمرأ ، ولا يجيء البلد إلا لبيع أرضاً أو يتخلص من ثمر . كانت نوعاً من الناس لم يعرفه أهل البلد في حياتهم ، يحافونه كما يحافى المريض بالجدام . حتى أقرب الناس اليه ، عمومه وأخواله ، لم يكونوا يأمنون في بيوتهم ، فسدوا الباب في وجهه مخافة أن يفسد أبناءهم أو يفسق ببناتهم . وفي إحدى زياراته المتقطعة للبلد وجد عرس اخته - فإن أهله كانوا يتجنبون حضوره لأفراحهم ولم يكن هو بطبعه يحضر مأتماً . وكاد ذلك العرس ينقلب بسببه إلى مأساة . أولاً حادثة الزين . جاء الزين كعادته في مراحه وهذره ولم يكن أحد يأبه له . لكن سيف الدين لم يعجبه ذلك فضربه بفأس على رأسه . وكادت المسألة تنتهي بالسجن ، لولا تدخل العقلاء من أهل البلد الذين قالوا أن سيف الدين لا يستحق الوقت الذي ينفقونه عليه في المحاكم : فأنيا كاد

العريس يغير رأيه في آخر لحظة لأنه تشاجر مع سيف الدين
أخي العروس ومرة أخرى تجمع العقلاء من أهل البلد ، بما
فيهم أبو العريس ، وقالوا ان سيف الدين ليس منهم ، وان
حضوره العرس شر لا يستطيعون رده . ثالثاً ، في الأسبوع
الآخر من حفل الزواج انهم على الدار عشرات من الناس
القرباء الذين لم يرم أحد من قبل . نساء ماجنات ورجال
زائفو النظرات ، وصاليك ، وسفهاء ، جاؤوا من حيث لا
يدرى أحد . كلهم أصدقاء سيف الدين دعاهم لحفل زواج
أخته . وهنا لم يجد أهل البلد بداً من القيام بعمل . قبل أن
يستمر هؤلاء الضيوف في جلستهم إذا بصف من رجال البلد ،
يتقدمهم أحد اسماعيل ، ثم محبوب ، ثم عبد الحفيظ ، فالطاهر
الرواسي ، فحمد ود الرئيس ، وأعمام سيف الدين وأخواله ،
نحو من ثلاثين رجلاً في أيديهم عصي غليظة وفؤوس . أغلقوا
الأبواب عليهم وأشبعوهم ضرباً ، وأكثر من ضربوا منهم
سيف الدين . ثم ألقوا بهم في الطريق . وبينما البلد بأسرها
تضج من ذلك البلاء الذي اسمه سيف الدين ، إذا به فجأة
بعد (حادث الحنين) يتغير كأنه ولد من جديد .

لم يصدق الناس عيونهم بادی ، الأمر ، ولكن سيف الدين
أخذ كل يوم يأتي يحدید . سمعوا أولاً انه ذهب من صباحه إلى
أمه وقبّل رأسها وبكى طويلاً بين يديها . وما كادوا يستجمعون
أنفاسهم حتى سمعوا انه جمع أعمامه وأخواله وانه تاب واستغفر
أمامهم . وأنه تأكيداً لتوبته أخرج ما تبقى من ثروة أبيه بن

ذمته ، وجعل عمه الأكبر وصياً عليها حتى يصير هو صالحاً
تماماً لمباشرة مسؤوليته . كاد أهل البلد يعوّدون آذانهم على
ذلك ، حتى رأوا لمحبهم سيف الدين يؤم المسجد لصلاة
الجمعة . كان حليق اللحية ، مهذب الشارب ، ونظيف الثياب .
ويقول الذين حضروا الصلاة انه لما سمع خطبة الامام ، وكان
موضوعها السبر بالوالدين ، أجشش طويلاً بالبكاء حتى أغمي
عليه ، وتجمهر حوله الناس يطيبون خاطره . ولما خرج من
المسجد ، ذهب من فوره إلى موسى الأعرج وقال له أنه أخطأ
في حقه وطلب صفحه وقال له أنه سيبره كما بره أبوه . وعاشت
البلد شهراً أو قرابة شهر وهي تلهث كل يوم من عمل جديد
قام به سيف الدين . عزوفه عن الحمر ، إبتعاده عن اصدقاء
السوء ، مواظبته على الصلاة ، انصرافه إلى اصلاح ما فسد
من تجارة أبيه ، بره بامه ، خطوبته لبنت عمه . وأخيراً عزمه
على تأدية الحج ذلك العام . وكان عبد الحفيظ ، وكان من
أكثر الناس إيماناً بمعجزة الحنين ، كما تجلت في سيف الدين ،
كلما سمع نبأ جديداً يسرع به إلى محبوب ، وكان معروفاً
يحفائه لأهل الدين والنسك منهم بوجه خاص بمعجزة يا زول ،
ما في اثنين ثلاثة) . ويصمت محبوب وهو يحبس في جوفه
بذلك القلق النامض الذي يساوره إزاء هذه الحالات . (سيف
الدين عزم على الحج . تصدق بالله يا زول ؟ تأمن والا ما
تأمن ؟ معجزة يا زول دون أدنى شك) . كان محبوب يقول
لمبد الحفيظ لما بدأت القصة ان سيف الدين شبع من السفامة ،

أو على قوله (وصل السفاهة حدّها) ، وكان لا بد أن يتغير
في يوم من الأيام . لكنه وهو يسمع كل يوم شيئاً جديداً
مذهلاً لم يعد قادراً حتى على الجدل ، فلاذ بالصمت .

كانت معجزة سيف الدين بداية لأشياء غريبة تواردت على
البلد في ذلك العام . ولم يعد ثمة شك في ذهن أحد ، حتى
محجوب ، وهم يرون المعجزة تلو المعجزة ، ان مرد ذلك كله
ان الحنين قال لاولئك الرجال الثمانية أمام متجر سعيد ذات
ليلة : (ربنا يبارك فيكم . ربنا يجعل البركة فيكم) كان الوقت
قيل صلاة العشاء بقليل ، وهو وقت يستجاب فيه الدعاء ،
خاصة من أولياء الله الصالحين أمثال الحنين . كانت البلد هادئة
ساكنة ، إلا من ربح خفيفة منعشة تلعب بحريد النخيل .
إنهم جميعاً ، الرجال الثمانية الذين شهدوا الحادث وبقية الناس
في بيوتهم وحقولهم ، يذكرون تلك الليلة بوضوح كأنها كانت
ليلة البارحة ، وكان الظلام الخملي الكثيف يربض على اركان
البلد ، هدا أضواء مصابيح خافتة تسربت من نوافذ البيوت ،
والضوء الساطع من المصباح الكبير في متجر سعيد . كانت
الوقت وقت تحول الفصول ، من الصيف إلى الخريف . يذكر
سعيد صاحب الدكان ان الليلة لم تكن قاتظة كسابقتها وانه
لم يكن رطب الوجه من العرق وهو يزن سكرًا لسيف الدين ،
وانه لما (وقعت الوقعة) كما يسميها ، وترك ميزانه وخرج
من دكانه ليحول بين الزين وسيف الدين ، يذكر أن نسبا

بارداً هب على وجهه ! ويذكر الناس الذين لم يسددهم الحظ بحضور الحادث لأنهم كانوا يتسابقون لصلاة العشاء في المسجد ، ان الامام تلا في تلك الليلة ، حين صلى بهم ، جزءاً من سورة مريم . وحاج ابراهيم ، عم الزين ووالد نعمة ، وهو رجل مشهود له بالصدق ، يذكر تماماً ان الامام قرأ الآية (وهزي اليك يحنح النخلة تساقط عليك رطباً أجنيا) من سورة مريم ، وهي آية فيها الخير والبركة . ويضيف حمد ود الرئيس ، وهو مشهور في البلد بسمة الحيال والجنوح الى المبالغة ، بأن نجماً له ذنب سطح تلك الليلة في الافق الغربي فوق المقابر . لكن أحداً غيره لا يذكر نجماً له ذنب سطح في تلك الليلة . على أي حال ، لا شك في ان الحنين ، ذلك الرجل الصالح ، قال على مسمع من ثمانية رجال ، في تلك الليلة المباركة بين الصيف والخريف ، قبيل صلاة العشاء بقليل : (ربنا يبارك فيكم ربنا يجعل البركة فيكم) وكأنما قوى خارقة في السماء قالت بصوت واحد : (آمين) .

بعد ذلك توالى الخوارق معجزة تلو معجزة ، بشكل يأخذ باللب . لم تمرّ البلدي حياتها عامار خيها مباركاً مثل (عام الحنين) كما اخذوا يسوونه . صحيح ان اسعار القطن ارتفعت ارتفاعاً منقطع النظير في ذلك العام ، وان الحكومة لأول مرة في التاريخ سمحت لهم بزراعته بعد ان كان ذلك وقفا على مناطق معينة في القطر . (محجوب وحده ، وباعتراف منه ، ربح اكثر من الف جنيه من قطنه) . وصحيح ايضا ان الحكومة لغير ما سبب اولسبب خفي لا يعلمونه ، بنت معسكراً كبيراً للبش في الصحراء على

بعد ميلين من بلدهم . والجند بآكلون ويشربون ، فانتعشت
البلد من توريد الخضروات واللحوم والفواكه والبن للجيش . حتى
اسعار الزمر ارتفعت ارتفاعاً ليس له نظير في ذلك الصام .
وصحيح أيضاً ان الحكومة ، هذا المخلوق الذي يشبهونه في
فؤادهم بالحمار الحرون ، قررت لفسير ما سبب ظاهر ايضاً ان
تبنى في بلدهم - دون سائر بلدان الجزء الشمالي من القطر ، وهم
قوم لا يحول لهم ولا طول ، ولا نفوذ ولا صوت يتحدث باسمهم
في محافل الحكام - قررت الحكومة ان تبنى في بلدهم ، دفعة
واحدة ، مستشفى كبيراً يتسع لمائة مريض ، ومدرسة ثانوية
ومدرسة للزراعة ومرة اخرى عادت الفائدة على البلد ، في
الأيدي العاملة ، ومواد البناء وتوريد الغذاء تاهيك بان مرضاهم
سيضمنون العلاج ، وان أبناءهم سينالون حقهم من التعليم . واذا
كانت كل هذه الأدلة لا تكفي ، فكيف تفسر بان الحكومة
هذا (الحمار الحرون) في اعتقادهم ، قررت ايضاً في العام ذاته
ولم يمض على وفاة الحنين أكثر من شهرين ، ان تنظم اراضيهم
كلها في مشروع زراعي كبير تشرف عليه الحكومة نفسها بما
لها من قوة وسلطان ؟ وجدوا بلدهم فجأة تملج بالمساحين
والمهندسين والمفتشين . والحكومة اذا عازمت على أمر فانها
قادرة على تنفيذه فما هو الا يوم في أثر يوم وشهر يعقبه شهر ،
حتى قام على خفة النيل في بلدهم بناء شامخ من الطوب الاحمر
مثل المعبد يلقي ظلاله على النيل وبعد ذلك بقليل ، بين لفظ
العاملين وقرعة الحديد إذا بمجالات ذلك المارد تدور ، واذا

بمصاصة تشفط من ماء النبل ، كما يشفط الرجل الشاي ،
 في لمح البصر ، كيات لا تقوى عليها عشرات من سواقيهم في
 عشرات الايام . وإذا بالأرض على اتساعها من ضفة النيل إلى طرف
 الصحراء بغيرها الماء ، بعضها اراض لم تر الماء منذ اقدم المنين ،
 وإذا بها بعد قليل تموج بالحياة . كيف تفسر هذا ؟ عبد الحفيظ
 يعلم السر ، فهو يقول المحبوب ، وهو يجمع بين عبيد الحقل
 الراسع الذي هو حقله ، والريح تلمب بالقمح فتثني صفوفه
 فكأنه حوربات رشيقة تجفف شعرها في الهواء : (معجزة
 يا زول ، ما في أدنى شك) .

جلس الطريفي خلسة في مقعده ، بعد أن حدث الناظر
 بخبر عرس الزين ، جلس خلسة على طرف مؤخرته كأنه
 يتميأ للهروب في أية لحظة ، فقد كان في سمته وطبعه شيء من
 سميت الضمير وطبعه . ونظر حوله بعينه الماكرتين . وممن
 في أذن جاره من اليمين : (نجنا الليلة من الجرافيا ، أشار طك
 الناظر ما يتم الحصة) . وكما تنبأ الطريفي أعلن الناظر في
 صوت فاتر غير مكثوث انه خارج لأمر عاجل : (راجعوا
 الدرس بتاع منطقة زراعة القمح في كندا) . وخرج في
 خطوات متوترة . وراقبه الطريفي ، وهو يحاول ألا يهرول
 حتى وصل باب فناء المدرسة . وضعك الطريفي بنجبت حين
 رأى الناظر يمسك بذيل عباءته في يده ، ويهرول مكباً على
 وجهه في الرمل .

ووصل الناظر إلى دكان شيخ علي في السوق، لاهت النفس، جاف الحلق، إذ أن المدرسة لم تكن قريبة كل القرب من السوق وبينها وبينه رمل تغرس فيه القدم، والناظر قد جاوز الحسين. كان دكان شيخ علي في السوق مقره المفضل. سر لما رأى عبد الصمد أيضاً، فقد كانت بينه وبينه صداقة مريرة، لا يطيب له المجلس أو لعب الطاولة بدونه. وكان بينه وبين المتجر مقدار عشرة أمتار لكنه لم يطق صبراً، فبدأ يتحدث وهو مقبل عليها: (شيخ علي، حاج عبد الصمد، السنة دي سنة المعاييب دا كلام ايه دا ؟) وأوصلته الجملة عندهم، فأجلسوه على مقعده المفضل، مقعد وطويء من خشب وحبال عليه مسند وله متكآت على جانبيه.

وكانت القهوة ما تزال ساخنة، تفوح منها رائحة العرقفة والعهبان والجنزبيل. أمسك بالفنجان وقربه إلى فمه، لكنه لم يلبث أن رده وقال: (الخبير دا صحيح ؟)

وضحك عبد الصمد وقال للناظر: (كدي اشرب القهوة قبل تبرد. الكلام صحيح).

وقال الشيخ علي وهو يحرك التبغ المضوغ من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر في فمه (حكاية عرس الزين موكدي ؟ صحيح وأبوه صحيح كان).

وشطف الناظر شفطة كبيرة من الفنجان، ثم وضعه على منضدة صغيرة أمامه وأشعل لنفسه سيجارة شد منها نفساً عميقاً

(يا رجل دي سنة غريبة جداً ، والا انا غلطان ؟) . لم يكن الناظر يستعمل عبارة (زول) ، أي (شخص) كقبعة أهل البلد ، بل كان يقول (رجل) في بداية جملة .

وقال عبد الصمد : (كلامك صحيح جناب الناظر . سنة صجيبة فعلاً . النسوان القنعن من الولادة ولدن . البقر والغنم جابت الاتين والثلاثة) . وواصل حاج علي تعداد المعجزات التي حدثت ذلك العام : (ثمر النخيل كثير لا من غلبنا من الشوالات النشبة فيها . الثلج نزل . دا كلام ا الثلج ينزل من السما في بلد صحراء زي دي ؟) ومزّ الناظر رأسه . ومهم عبد الصمد كلمات في حلقه ، فقد كان نزول الثلج في ذلك العام شيئاً حيرهم جميعاً . ولم يستطع الناظر مع طول بآعه في علم الجغرافيا ان يحمد له تعليلاً . وقال الناظر : (لكن المعجزة الكبرى موضوع زواج الزين) — هذه كانت عادته ، يزوج الكلمات الفصحى في حديثه .

وقال شيخ علي : (الولد ما يكاد يصدق) كان الناظر يمد يده هو وعبد الصمد بكلماته الفصحى ، فيحاولان مجاراته . وقال عبد الصمد : (كلام الحنين ما وقع البحر . قال له باكر تعرض أحسن بت في البلد) .

وقال الناظر : (أي نعم والله . أحسن بلت في البلد إطلاقاً . أي جمال ا أي أدب ا أي حشمة ا)

وقال عبد الصمد مستفزاً : (أي فلوس ا انا عارفك كت

خات صينك عليها عشان مال أهما). واحتد الناظر وهو يرد
 التهمة عن نفسه : (أنا؟ خاف الله يا رجل . هذه في عمر بناتي)
 وقال شيخ علي بسري عنه : (عمر بناتك إيه يا شيخ ؟
 الراجل راجل حق في أرزل العمر . وللبنت من سن أرمناشر
 قابله للزواج من أي راجل ولو كان زي جنابك في اللعين) .
 (خاف الله يا رجل . انا في الحسين . اصفر منك ومن
 عبد الصمد قطع شك) .

وقهه عبد الصمد قهقهته المشهورة من جوف صدره وقال:
 (طيب بلاش موضوع الممر، إيه رأيك في حكاية عرس الزين؟)
 وقال الناظر : يا رجل دا موضوع مدهش . ازي حاج
 ابراهيم يقبل ؟ الزين رجل درويش ماله ومال الزواج ؟) .
 وقال عبد الصمد باقتناع همتي : (حاسب جنابك من ذكر
 الزين. دا راجل بركة صديق الراجل الصالح الحنين الله يرحمه).
 واذاف شيخ علي ايضاً : (رحمة الله عليه. جاب لنا الخير
 في البلد) .

وقال عبد الصمد : (وكله عشان خاطر الزين) .
 وقال الناظر : (يا رجل ما دخلنا في موضوع الكرامات؟
 لكن برضه ...)
 وقاطعه شيخ علي : (مهما يكون ، الراجل راجل والمره
 مره) .
 واذاف عبد الصمد : (والبت بت عمه على كل حال) .

صمت الناظر ، فانه لم يجد ما به على كلامها - من الناحية
 الشككية على الأقل : فكون بنت المم لابن المم حجة ليس
 بعدها حجة في عرف أهل البلد . انه تقليد قديم عندهم ، في
 قدم غريزة الحياة نفسها ، غريزة للبقاء وحفظ النورع . لكنه في
 قرارة نفسه كان مثل آمنة ، يحس بلطمة شخصية موجهة له .
 وأحسن برهة بارتياح : ان علي وعبد الصمد لا يملكان بانه
 فاتح حاج ابراهيم في أمر نعمة لو علما اذا لما استطاع ان ينجو
 من لسانيهما السليطين . وسأل نفسه وهو يشرب الفنجان الخامس
 من قهوة شيخ علي ، لماذا طلب يدها ؟ فتاة صغيرة في سن بناته
 انه لا يدري تماماً . لكنه رآها ذات يوم خارجة من الدار ،
 ترتدي ثوباً أبيض . صادفها وجهاً لوجه . راعه جمالها . سلم
 عليها بصوت مرتعش فردت سلامه بصوت هاديء رزين . قال
 لها : (انت نعمة بنت حاج ابراهيم ؟) فقالت دون تردد او
 وجل : (نعم) . وبسرعة بحث في ذهنه عن سؤال آخر
 يستبطنها به قبل أن تذهب فلم يجد خيراً : (أخوك احمد كيف
 حاله ؟) - كان هذا أخاها الأصغر الذي كان من تلاميذه .
 فقالت له ووجهها الجريء قبالة وجهه : (طيب) ثم ذهبت ...
 وعاش الناظر بعد ذلك ليالي وصورتها لا تفارق ذهنه . لملها
 أيقظت في قلبه احساساً دفيناً ، لم يذكره منذ عشرين عاماً .
 واخيراً لم يقوَ على الصبر ، فانتهر وعكة خفيفة ألمت بأبيها
 فذهب اليه بحجة عيادته . وجده وحده لحسن حفظه . وبعد
 حديث سطحي عن أسعار القمح وحال المدرسة ، دخل الناظر

في الموضوع . وبسرعة طلب يد نعمة من أبيها . لم يفهم حاج
ابراهيم شيئاً أول الأمر ، أو لعله تنابى ، فاستوضح الناظر في
جملة أو جملتين حزناً في نفسه . قال له أولاً : (دابر نعمة لي منو؟)
فقال الناظر بشيء من العجرفة : (لي منو؟ أأنا طبعاً) . وكأنما
حاج ابراهيم غرس خنجراً ثم ضغط على مقبضه ليثبتته أكثر في
قلبه حين قال له : (ليك أنت ؟) خلاصة القول ان زيارته
كانت خطأ فادحاً . وحاول حاج ابراهيم أن يخفف عنه الومع
فألقى خطبة طويلة عن الشرف الذي أسبغه عليه الناظر بطلبه
وأنه خير صهر له وو ... لكن ، وهذا هو المهم ، لكن الفرق
بين سنه وسن البنت يجعله لا يستطيع أن يقبل ، فهو بهذا لا
يرضي ضميره . ثم ان أخوانها سيعترضون . وأخيراً حاول الناظر
ملافاة الضرر ، فاستحلف حاج ابراهيم الا يذكر شيئاً مما دار
بينها لخلق ، وان يعتبر الأمر كأن لم يكن . (لحفر حفرة
وندفنه في محله دا) .

وكان حاج ابراهيم عند حسن ظنه . لكن الناظر في قرارة
نفسه ، على الرغم من اقتناعه بخطئه ، لم يستطع ان يتخلص من
الطعم المر في حلقه . ولما سمع بأنها ستزف للزين دون سائر الناس
أحس الخنجر ينغرس أكثر في قلبه . وذعر الناظر قليلاً حين سمع
عبد الصمد يقول له : (جنابك ما تزعل ابداً . اذا كنت عاوز
تعرّس ، البلد مليان نساء عزيات ، المطلقة والراجلها مات
اجل نساء علي باليمين) .
وهنا دار الناظر فعلاً . انصب حنقه الداخلي كله على

عبد الصمد : (يا رجل انت مجنون؟ انت ما تعرف تفرق بين
الجد والهزار ؟ اما انت راجل اونطه صحيح) .

وقهه عبد الصمد بلفظة عميقة ، فقد نجح في استشارة الناظر
انه يتصيد هذه الفرص . لعل الذي آلمه في الموضوع ذكر النساء
الثيبات ! وقال شيخ علي يزيد النار اشتعلا : (يعني جناب
الناظر لما يحب يتزوج فوق أم أولاده ، يتزوج نسوان سكندهاندا ؟
اما فعلا يا حاج عبد الصمد انت راجل اونطه صحيح) .

وتمسك عبد الصمد بكلمة (سكندهاندا) يفيظ بها علي هذه
المرّة : ('قت شنو آشيخ علي ؟ سَكَن دَهان ؟ ' والله عجيب !
عشنا وشفنا علي ود الشايب يتكلم الا فرنجي) .

وضمك الناظر بأفراط ، محاولاً قدر المستطاع تحويل الهجوم
عن شخصه الى شخص شيخ علي . لكن شيخ علي كان عليا
بنزوات عبد الصمد وحركات الناظر ، فتجاهل هجوم عبد الصمد
وعاد بالحديث إلى موضوع زواج الزين : (المهم زي قلنا .
المرس مو قاسي . والراجل راجل وأن كان بي ريال ، والمره
مره وأن كانت شجرة الدر) .

تمعجب الناظر في سره كيف عرف شيخ علي اسم شجرة الدر .
ووقع الاسم موقعا حسنا على أذن عبد الصمد وكان جاهلا به
لكنه تخرج من السؤال مخافة ان يفضح جهله . ومضى شيخ علي
يعدد لها اسماء الرجال الذين لم يكن لهم شأن يذكر ومع ذلك
تزوجوا نساء بارعات الذكاء مفرطات الحسن . استحوذ على

اهتمام خصميه مدة غير قليلة من الزمن . وغمرته السعادة وهو يرى الدهشة والاعجاب يبدوان على وجهيهما . ذكرهما بقصة كثير الذي أحبتة عزة على قصره وبشاعة هيئته ، وقصة الأعرابية التي سألوها كيف تزوجت رجلاً جلفاً قميناً فقالت لهم (والله لو ... الخ) . وكاد الناظر وعيد الصمد يستلقيان على ظهرهما من الضحك حين سمعا ما قالته الأعرابية . ثم أشار الى قبيلة الابراهيمات الذين ألمحدروا جميعاً من صلب رجل درويش يدعى ابراهيم أبو جبة ، وكيف أنه ... لكن عبد الصمد ضاق ذرعاً بطلاوة لسان شيخ علي ، فقاطعه بشيء من الحدة قائلاً : (انت رابح بعيد ليه لي كثير عزة وقبيلة الابراهيمات ؟ عند سعيد اليوم .. ماك طاري حكاية عرسه ؟) ابتسم الناظر ، فقد كانت بينه وبين سعيد اليوم مودة خاصة ، أم لعله كان يستغل سعيد في جلب الخطب والماء لبنته ؟ وكان سعيد يبيع حطب الوقود ويخدم في البيوت ، ويدخر ماله عند الناظر . ولما أراد الزواج جاء للناظر واستشاره ، وتباهى بعد ذلك أن الناظر في جلالة قدره شهد عقد زواجه . كل أحد في البلد يعرف قصة زواج سعيد ، وأنه عاش مع زوجته قريباً من الحلول لا يمساها وكادت المرأة تئأس وتطلقه . وكان سعيد يقول إذا سأله عن سبب أبطائه : (الترن بالمهلة) . لكنه فيما بعد على أي حال أولدها أولاداً وبناً .

وفجأة لمح الناظر في خياله وجه نعمة ، ومرة أخرى بالخنجر يتحرك في قلبه ، فقال وكأنه لم يسمع كل القصص التي قصها

عليه شيخ علي وحاج عبد الصمد : (لكين نتزوج الزين ؟ دا اسمه كلام يا رجل ؟ والله عجائب ا) .

تأثر أمام المسجد بالحوادث العجيبة التي شهدتها القرية ذلك العام . كان رجلاً ملحاحاً متزمتاً كثير الكلام ، في رأي أهل البلد . كانوا في دخيلتهم يحتفرونه ، لأنه كان الوحيد بينهم الذي لا يعمل عملاً واضحاً - في زهمهم . لم يكن له حقل يزرعه ولا تجارة يهتم بها ، ولكنه كان يعيش من تعليم الصبيان ، له في كل بيت ضريبة مفروضة ، يدفعها الناس عن غير طيب خاطر . وكان يرتبط في أذهانهم بأمور يحلو لهم أحياناً ان ينسوها : الموت ، والآخرة ، والصلاة . فعلق على شخصه في أذهانهم شيء قديم كتيب مثل نسج العنكبوت . اذا ذكر اسمه خطر على بالهم تلقائياً موت عزيز لديهم ، أو تذكروا صلاة الفجر في عز الشتاء ، وما يرتبط بذلك من وضوء بالماء البارد يشقق الرجلين ، وخروج من الفراش الدفيء الى لفتح الصقيع ، وسير في غبش الفجر الى المسجد . هذا اذا كان الواحد منهم يذهب بالفعل الى الصلاة . اما اذا كان مثل محبوب ، وعبد الحفيظ ، واحد اسماعيل ، والطاهر الرواسي ، وحسدود الرئيس ، من التفرغ المصاة ، الذين لا يصلون ، فانه يحس كل صباح باحساس غامض يثير القلق ، من نوع الاحساس الذي يحسه الواحد منهم اذا نظر خلصة الى امرأة جباره . ويقول لك محبوب اذا سألته عن امام المسجد انه راجل صعب . لا ياخذ ولا يدي . معنى ذلك انه لم يكن يسايرهم او

يخوض معهم في احاديثهم - لم يكن يعنيه ، كما يعنيهم ،
اوان زراعة القمح وسبل ربه ومماذه وقطعه او حصاده . لم
يكن همه هل موسم النرة في حقل عبد الحفيظ نجح ام فسد ،
وهل البطيخ في حقل ود الرئيس كبر ام صغر ؟ كم سعر اردب
الفول في السوق ؟ هل هبط سعر البصل ؟ لماذا تأخر لفتح
التخل ؟ كانت تلك امور ينفر منها بطبعه ويحتقرها بسبب
جبله بها . ومن ناحية أخرى ، كان هو يتم بأمور لا يابه لها
إلا اقليلون في البلد . كان يتتبع الاخبار من الاذاعة والصحف
ويحب ان يناقش هل ستقوم الحرب ام لا ؟ هل الروس أقوى
أم الأمريكان ؟ ماذا قال نهرو وماذا قال تيتو ؟ وكلت
أهل البلد مشغولين بمزئيات الحياة ، لا تعنيهم هموياتها .
وهكذا نشأت الهوة بينه وبينهم . لكنهم ان لم يحبوه ، فقد
كانوا يعترفون بحاجتهم اليه . يعترفون مثلاً بطله ، فقد قضى
عشر سنوات في الأزهر . يقول الواحد منهم : « الامام ما
عنده شغلة » . ثم يضيف : « لكن الحق لله لسانه فصيح
كلام » . كان يلهب ظهورهم في خطبه ، وكأنه ينتقم لنفسه
منهم ، بكلام متدفق فصيح عن الحساب والمقاب ، والجنة
والنار ، ومعصية الله والتوبة اليه ، كلام ينزل في حلقهم
كالسم . يخرج الرجل من المسجد بعد صلاة الجمعة زائغ العينين
ويحس وهلة كأن سير الحياة قد توقف . ينظر الى حقله بما فيه
من نخل وزرع وشجر ، فلا يحس بأي غبطة في نفسه . يحس
أنها جميعاً عرّض زائل ، وان الحياة التي يحياها بما فيها من فرح

وحزن ، ما هي إلا جسر إلى عالم آخر . ويقف برهة يسأل نفسه ماذا أعد لذلك العالم الآخر ؟ لكن جزئيات الحياة ما تلبث ان تشغل فكره ؛ وسريماً أسرع مما كان يتوقع ، تغيب صورة العالم الآخر البعيد ، وتأخذ الأشياء أوضاعها الطبيعية . وينظر إلى حقله فيحس مرة أخرى بذلك الفرح القديم الذي يعطيه مبررات وجوده . ومع ذلك فأكثرهم يعودون إليه في كل مرة ، ليجربوا نفس الصراع الفامض . يعودون إليه لأن صوته قوي واضح وهو يخطب ، عذب رخم وهو يرتل القرآن ، مهيب حين يصلي على الأموات ، حازم عليم ببواطن الأمور وهو يقوم بمقود الزواج . وكانت في عينيه نظرة احتقار وترفع ، يحس الواحد منهم رفعها حين يفقد ثقته بنفسه . كان مثل الضريح الكبير وسط المقبرة .

وكانت البلد منقسمة الى معسكرات واضحة المعالم ازاء الإمام (لم يكونوا ابدأ ينادونه باسمه ، فكأنه في أذهانهم ليس شخصاً بل مؤسسة) . معسكر أغلبه من الرجال الكبار المقلاء ، يتزعمه حاج ابراهيم ، ابو نمرة ، يعامل الإمام معاملة رد يشوبه تحفظ . هؤلاء كانوا يحضرون كل الصلوات في المسجد ، ويبدو على وجوههم على الأقل أنهم يفهمون ما يقول ، يدعونه إلى الغداء كل يوم جمعة بعد الصلاة ، كل واحد منهم يدعوه يوماً ، بالتناوب . كانوا يدفعون إليه بصدقة الفطر في عيد رمضان ، ويعطونه جلود النباتج في عيد الأضحى إذا تزوج أحد أبنائهم أو بناتهم ، أعطوه حقه نقداً

ومعه رداء أو ثوب . شذ عن هذا الفريق رجل في السبعين
اسمه ابراهيم ود طه ، لا يصلي ولا يصوم ولا يزكي ولا
يعترف بوجود الإمام . والفريق الثاني ، واغلبه من الشبان
دون العشرين ، يعادي امام المسجد عداً سافراً . بعضهم
تلاميذ في المدارس ، وبعضهم سافر وعاد ، وبعضهم يحس على
اي حال بفيض الحياة حاراً قوياً في دمه ، فلا يحفل برجل
صناعته تذكر الناس بالموت . هذا كان فريق المفامرين -
منهم من يشرب الخمر منراً ويلم خفية بالواحة في طرف
الصحراء - ، وفريق المتعلمين الذين قرأوا أو سمعوا بالمادية
الجدلية ، وفريق المتمردين ، وفريق الكسالى الذين يصعب
عليهم الوضوء في الفجر في عز الشتاء . ومن عجب ان
زعيم هذه الفئة كان ابراهيم ود طه ، الرجل الذي جاوز
السبعين ، لكنه كان يقرض الشعر . والفريق الثالث ، وقد
كان اكثر المسكرات وزناً ، فريق محبوب وعبد الحفيظ
والطاهر الرواسي وعبد الصمد وحمد ودالريس واحمد أساعيل
وسعيد . كانوا متقاربين الاعمار ، بين الخامسة والثلاثين
والخامسة والاربعين ، إلا احمد أساعيل فقد كان في العشرين
لكنه بحكم مسؤوليته وطريقة تفكيره كان واحداً منهم .
هؤلاء كانوا الرجال أصحاب النفوذ الفعلي في البلد . كان
لكل واحد منهم حقل يزرعه ، قي الغالب اكبر من حقول
بقية الناس ، وتجارة يخوض فيها . كان لكل واحد منهم
زوجة واولاد . كانوا الرجال الذين تلقاهم في كل امر جليل

يحل بالبلد . كل عرس هم القائمون عليه ، كل مسانم هم الذين يرتبون وينظمونه . يفسلون الميت فيما بينهم ، ويتناوبون حمله إلى المقبرة . هم الذين يحفرون التربة ، ويحلبون الماء ، ويغزلون الميت فسي قبره ، ويحلبون عليه التراب ، ثم تجدهم بعد ذلك في (الفراش) يستقبلون المعزين ، ويدبرون عليهم فناجين القهوة المرة . إذا فاض النيل أو انهر سيل ، فهم الذين يحفرون المجاري ، ويقيمون التروس ، ويطوفون على الحسي ليلا وفي ايديهم المصابيح ، يتفقدون احوال الناس ، ويحصرون التلف الذي أحدثه الفيضان أو تسيل . اذا قيل أن امرأة أو بنتاً نظرت نظرة فاجرة إلى أحد ، فهم الذين يكلّمونها وأحياناً يضربونها . لا يمنهم بنت من تكون . إذا علموا أن غريباً حام حول الحي حول المغيب فهم الذين يوقفونه عند حده . اذا جاء العمدة لجمع الموائد فهم الذين يتصدون له ، ويقولون هذا كثير على فلان ، وهذا معقول وهذا غير معقول . إذا ألم بالبلد أحد رسل الحكومة (وهم لا يأتون الا لماما) فهم الذين يستقبلونه ويضيفونه ، ويذبحون له الشاة او الخروف ، وفي الصباح يناقشونه الحساب ، قبل ان يقابل احداً من أهل البلد . والآن وقد قامت في البلد مدارس ، ومستشفى ، ومشروع زراعي ، فهم المتمهدون ، وهم المشرفون ، وهم اللجنة المسؤولة عن كل شيء . كان الإمام لا يحبهم ، ولكنه كان يعلم انه سجين في قبضتهم ، إذ أنهم هم الذين كلوا يدفعون له رقبته آخر كل شهر ، يجمعونه من اهل الحي . كل موظف حكومة

يجل بالبلد ، وكل من له حاجة يريد أن يقضيها ، سرعان ما
يكتشف هذا الفريق ، فلا تتجح له مهمة أو يتم له عمل إلا
إذا تمام مهم . لكنهم كانوا ، ككل صاحب سلطان ونفوذ
لا يظهرون نزعاتهم الشخصية . (إلا في مجالسهم الخاصة أمام
متجر سعيد) . الإمام مثلاً ، كانوا يعتبرونه شراً لا بد منه
فيحبسون ألسنتهم عن ذمه ما استطاعوا ، ويقولون « بالواجب
والجمالة » كما يقول محبوب . لم يكونوا يصلون ، ولكن
واحداً منهم على الأقل كان يحضر الصلاة مرة في الشهر ، إما
الظهر أو العشاء في الغالب ، فالفجر لا طاقته لهم به -
ويكون غرض الزيارة في الواقع شيئاً غير الاستماع لعظة الإمام
حينئذ يعطون الإمام مرتبه ، ويتفقدون بناء المسجد إذا كان
يحتاج إلى إصلاح .

وكان الزين فرياقاً بذاته . كان يقضي أعظم أوقاته مع
شلة محبوب ، بل انه كان في الواقع إحدى المسؤوليات الكبيرة
الملقاة على عاتقهم . كانوا يحرصون على إبعاده عن المشاكل ،
وإذا وقع في ورطة أخرجوه منها . كانوا يملكون عنه أكثر مما
تعلم أمه ، يشملونه بعنايتهم وترعاه عيونهم من بعيد . وكانوا
يحبونه ويحبهم . لكن الزين في موضوع الإمام كان معسكراً
قائماً بذاته ، يعامله بفظاظة ، وإذا قابله قادماً من بعيد ترك له
الطريق . ولعل الإمام كان الشخص الوحيد الذي يكرمه الزين ،
كان مجرد وجوده في مجلس يكفي لإثارتهم ، فيسب ويصرخ
ويتعكر مزاجه ويتحمل الإمام في وقار هيجان الزين ، ويقول

أحياناً ان الناس أفسدوه بمعاملتهم له كأنه شخص شاذ ، وان
كون الزين ولي صالح حديث خرافة ، وأنه لو ربي تربية حسنة
لشأ عادياً كبقية الناس . لكن من يدري ، لعله هو الآخر
أحس بقلق في صدره حين حذبه الزين بإحدى نظراته ،
فكل أحد يعلم أن الزين أثير عند الحنين ، والحنين ولي صالح
وهو لا يصادق أحداً إلا إذا أحس فيه قبساً من نور .

إلا أن الأمور اختلطت اختلاطاً غير يسير في (عام
الحنين) فان (خيانة) سيف الدين ، أو (توبته) (حسب
المسكر الذي انت فيه) ، اضعف فريقاً وقوى فريقاً . كان
سيف الدين بطل الراحة وفارسها وزعيمها . فلما تحول الى
معسكر الانتباه العقلاء سرى الرعب في قلوب أصدقائه
القدامى . كان من فاحية وارثا ، فكان هو الذي يدفع ثمن
الشراب في أغلب الاحيان . وكان ستاراً مفيداً يخففون وراءه
في مجونهم ، اذ كانت البلد مشغولة به عنهم . وكان بعضهم
يرى فيه رمزاً حقيقياً لروح الانطلاق والتمرد . وفجأة انهدت
الارض تحت ارجلهم . ثم ان سيف الدين استغل معرفته
بجبايهم ، فاصبح اخطر خصم لهم . واشتد ساعد الإمام
بسيف الدين . كانت الواحة دائماً شغله الشاغل ، وتقوم في
نظره رمزا للفساد والشر . وفادراً ما كانت تحلو خطبة من
خطبه من ذكرها . والآن وقد عاد سيف الدين الى
جادة الصواب ، فقد زادت خطب الإمام قوة ، وزادت

حملته قوة . واصبح سيف الدين المثل الذي يحمره كل مرة
على ان الخير ينتصر في النهاية . لم يحفل الإمام بأن الحنين ،
وهو يمثل الجانب الخفي في عالم الروحانيات (وهو جانب لا
يعترف به الإمام) كان هو السبب المباشر في توبة سيف الدين .
معسكر (الوسط) ، جماعة محبوب ، لم يتأثر كثيراً ، فهم
يعتبرون الواحة ، كالإمام سواء بسواء ، شرأ لا بد منه ، ولم
يكونوا يأبهون كثيراً إلى أن بعض شبان البلد يسكرون ،
ما دام ذلك لا يؤثر على سير الحياة الطبيعي . لا يتدخلون
الا اذا سمعوا ان شاباً سكراناً تهجم على انثى او رجل من
اهل الحي . حينئذ يلجأون الى اساليبهم الخاصة ، التي تختلف
عن اساليب الإمام . وفي تأييدهم لبقية الناس ، في محاولة
تهديم الواحة ، لم يكونوا ينظرون الى عملهم كما ينظره الإمام
محاولة لتغليب الخير على الشر . لا بل لان زوال الواحة
سيغنيهم عن متاعب عملية ، لا حاجة لهم فيها .

المهم ان الإمام فرح بسيف الدين فرحاً عظيماً . اصبح
يذكره في خطبه . يتكلم وكأنه يتحدث اليه شخصياً . تراه
خارجاً داخلاً معه . وقال احد اسماعيل المحجوب مرة وهو
يرى سيف الدين والإمام يمشيان معاً ذراعاً في ذراع : (ود
البدوي من الخدم للإمام) .

وكان للإمام رأي في امر زواج الزين من نعمة بنت
الحاج ابراهيم .



دخل محبوب دكان سعيد ، ووضع قطعة نقد على الطاولة
فأخذها سعيد في صمت وانزل من الرف علبة سجائر بحاربي ،
ورضعها في يد محبوب ومعهما الباقي قطع معدنية صغيرة . جعل
محبوب سيجارة ، شد منها نفسين او ثلاثة ، ثم رفع وجهه
إلى السماء وتمن فيها دون احساس ، كأنها قطعة ارض رملية
لا تصلح للزراعة . وقال بفتور : « الثريا طلعت . وقت
زراعة المريق » . وظل سعيد مشغولاً بتفريغ علب من
صناديق ووضعها على الرف . بعد ذلك تحرك محبوب وجلس
قبالة الدكان . ليس على الكنبه ولكن على الرمل مكانهم
المفضل ، حيث ضوء الصباح يسهم بطرف لسانه ، فاذا ماجوا
في ضحكهم احياناً تراقص الضوء والظل على رؤوسهم ،
فكانهم غرقى في بحر يطفسون ويطفون . بعد ذلك جاء احمد
اسماعيل يجرجر رجله كعادته ، واستلقى بظهره على الرمل
قريباً من محبوب دون ان يقول شيئاً . ثم جاء عبد الحفيظ
وحمد ود الرئيس ، اما يضحكان . لم يسألوا على صديقها ،
وهذان لم يسألوا عن مر ضحكها ذلك شيء آخر في تلك
الفئة . كانوا يعلمون ، بطريقة ما ، ما يدور في ذهن كل منهم
دون سؤال . وقال محبوب بعد ان بصق على الارض : « انتو
لسع في حكايات سعيد اليوم » ؟ كان احمد اسماعيل قد انقلب
على بطنه فقال وكأنه يحدث الرمل : « لازم المسره عاززه
تطلقه » . وقال عبد الحفيظ في مرج ، ان زوجة سعيد اليوم

جماعته في الحقل وقالت له وهي تبكي انها تريد ان تطلق من سعيد . ولما سأها عن السبب قالت له ان سعيد كلها كلاماً قاسياً في اللبلة الماضية وقال لها انها امرأة « جيفة » - هكذا لانها لا تتعطر ولا تزين كبقية النساء . ولما قارعتة الكلام ، صفعها على وجهها وقال لها : « امشي اخدي دروس من بنات الناظر » . وكان الطاهر الرواسي قد وصل اثناء ذلك وجلس في هدوء في المكان الذي لا يصله النور من بقعة الرمل . ضحك وقال : « المسنوح يمكن قابيل للناظر يعمرس له واحده من بناته » . وقال عبد الحفيظ انه طيب خاطر المرأة وردها الى بيتها وقال لها انه سيجهيئهم ليكلم سعيد . وفعلوا غدا اليها وقت الظهيرة . لكنه تريت عند باب الدار ، فقد وجده مغلقاً ، وسمع داخله ضحكات سعيد وزوجته ، ضحكات هنيئة منشرحة ، وسمع سعيد يقول لزوجته ، وكأنه يعض اذنها : « ابكي يا خيتي ابكي » . وضحكوا كلهم : كل واحد منهم على طريقته : احمد اسماعيل يكركر بضحك يزجر بسين بطنه وصدره . ومحجوب يضحك في فمه ويحدث طقطقة بلسانه . وعبد الحفيظ يضحك كالطفل . وحمد ود الريس يضحك يحسمه كله ، وخاصة رجليه . والطاهر الرواسي يمسك رأسه يجماع يديه حين يضحك . وكان سعيد في دكانه ، فضحك ضحكته الخشنة التي تشبه صوت المنشار في الخشب . وقال محجوب : « المسنوح كيفن قدر في الحردا ؟ »

واستمر حديثهم هكذا . حديث منقطع تتخلله فترات صمت . لم يكن صمتهم ثغرات في الحديث ، بقدر ما كان امتداداً له . يقول احدهم جملة مبتورة : « ... ما عنده فهم ، ويقول الآخر : « ... الفاضي يعمل قاضي » ، ويضيف الآخر : « ... زمان قلنا لكم طلموه من اللجنة قتلوا ، » ويقول الآخر : « ... باذن الله دي آخر سنة ليه ، ولا يدري الضريب عنهم عن يتكلمون . لكن ذلك شأنهم ، يتحدثون وكأنهم يفكرون جهاراً ، وكأن عقولهم تتحرك في تناسق ، وكأنهم بشكل أو بآخر عقل كبير واحد . يضي الحديث قريباً مثل هذا ، ثم يذكر احدهم عوضاً جملة او حادثة تثير خيائهم جميعاً في وقت واحد ، وفجأة تسري فيهم الحياة فكأنهم كومة قش اشعلت فيها النار . يستوي جالساً الذي كان راقداً على ظهره . ويضم الآخر ذراعيه على ركبتيه ويقرب الذي كان جالساً بعيداً . ويخرج سعيد من مكانه . يقتربون بعضهم من بعض ، حينئذ ، كأنهم يتحركون نحو تلك النقطة ، ذلك الشيء في الوسط الذي يسمون اليه جميعاً . يميل محبوب الى الامام ، وتنفرس يدا احمد اسماعيل في الرمل ، ويضبط ود الرئيس يديه على رقبته . هذه هي اللحظة التي تلهمهم فيها ، بين النور والظلام ، وكأنهم غرقى في بحر . وحياناً يتحدثون في كلامهم ، يتشاجرون ، تخرج الكلمات من افواههم كأنها قطع من الصخر ، تتقاطع جملهم ، يتحدثون في

آن واحد ، ترتفع اصواتهم . في مثل هذه الحالات يظن
 الغريب عنهم انهم غلاظ الطبع . لهذا تختلف الآراء فيهم ،
 حسب اللحظات التي يراهم فيها الناس . بعض اهل البلد
 يمتثلونهم صامتين قليلي الكلام ، لأنهم يصادفونهم في احدى
 تلك الحالات ، حين يقف حديثهم عند « آ » و « او » و « لا »
 و « نعم » . وبعض الناس يقولون عنهم انهم « ضحّاكون »
 كالاطفال ، لأنهم صادف ان وجدوهم في احدى حالات غرقهم ،
 ويحلف موسى البصير انه زامل محبوب الى السوق - مسافة
 ساعتين بالحمار - فلم يقل له كلمة واحدة . كان الناس يتبعون
 عن مجالسهم ، لأنهم حينئذ يحسون احساس الغريب ، وكانوا
 هم يفضلون الا يكون بينهم غريب . كانوا كأنهم توائم ، ولكن
 اذا عاشرتهم مدة تدرك الاختلافات التي تجعل كل منهم فرد
 قائماً بذاته . احمد اسماعيل ، بحكم سنه ، كان أميلهم الى المرح
 ولم يكن يبالي اذا انتشى بالتمتر في المناسبات . وكان احسنهم
 رقصاً في الأعراس . وعبد الحفيظ كان اكثرهم مجاملة للناس
 الذين لا يفكرون مثل تفكير « العصابة » ، كما كانوا يسمون
 انفسهم ويسميهم الناس . كان هو الذي ينههم الى ان ابن فلان
 تزوج ، وفلاناً مات ابوه ، وفلاناً عاد من السفر (من سكان
 الاحياء البعيدة عن حبيهم) فيذهبون جماعة جماعة في الغالب
 للتنزه او للتغزية . وكان احبائهم يذهب للمسجد للصلاة ،
 ويحاول الا يقول لهم . وكان الطاهر الرواسي اقربهم الى الغضب

واسرعهم الى امساك عصاه ، او سحب سكينه في اوقات
« الزنقة » . وكان سعيد احسنهم في معالجة الحكماء ، يسمونه
« القانون » . وكان حمد ود الرئيس ذا اذن حساسة لاخبار
الفضائح ، يحممها من اطراف البلد ، من الاحياء البعيدة ،
ويلقيها عليهم في اوقات مصينة في مجالسهم . وكفوا يندبونه في
الغالب لمعالجة مشاكل النسوان في البلد . وكان محبوب اعظمهم
وانضجهم . كان مثل للصخرة المدفونة تحت الرمل ، تصطم
بها اذا عمقت في حفرك . وكانت صلابته تظهر في الازمات
الحقيقية : حينئذ يصير « رئيس المركب » ، يأمر وهم ينفذون
جاءهم مرة مفتش جديد للمركز ، اجتمعوا به مرة ومرتين .
تحدثوا اليه ، وتناقشوا معه . ثم قرروا فيما بينهم انه غير
صالح . وبعد شهر تأزمت الامور ، فقد قال المفتش لبعض
الناس ان « عصابة محبوب » تسيطر على كل شيء في البلد :
فهم اعضاء في لجنة المستشفى ، ولجان المدارس ، وهم وحدهم
لجنة المشروع الزراعي ووصل اليهم ان المفتش قال :
« ما فيش في البلد رجال غير الجماعه ديل ؟ » لما تشاوروا في
الامر بينهم ، كانوا اميل الى الرضوخ للامر الواقع ، وبعضهم
هرهس ان يستقيل من عضوية اللجان التي هسو فيها . ولكن
محبوب قال : « ما في انسان يتحرك من مكانه » ثم لم يلبث
المفتش غير شهر آخر حتى نقل . كيف تم ذلك ؟ لهجوب
اساليبه الخاصة ، في الحالات للقصى .

كلوا يضحكون ، حين سمعوا الزين يشتم بأعلى صوته :
 « الراجل الباطل . الحمار الذكر » . ووصل عندهم ، فوقف
 برهة فوقهم ، ساقاه منفرجتان ، ويداه على خصره . كان
 نصفه الأعلى كله في الضوء ، ولاحظوا ان هينيه بمحرقان اكثر
 من احمرارها الطبيعي . قال الطاهر الرواسي : « واقف فوقنا
 مالك دابر تشرب دمنا ؟ يا تلعد يا تفور » . وقال احمد
 اسماعيل : « لازم الزين سكران الليلة » . وقال عبد الحفيظ :
 « اقعد خذ لك نفس » وقال حمد ود الرئيس : « قالوا الليلة كت في
 حوش العمدة . شن مشيت تكويس ؟ البت وعرت سوها ، ثاني
 شن دابر ؟ » وامسك الزين السيجارة من عبد الحفيظ وجلس
 صامتاً واخذ ينفخ فيها بفيظ . ضحك الطاهر الرواسي وقال
 له : « مو كدى يا مرمّد . عامل نفسك كفتجري ومثعلهم ،
 السيجارة ماك عارف تشربها . جرها لي ورا . اي كدى ،
 زي كأنك نقص فيها » . ولجج الزين في جذب الدخان الى فمه
 فنفت منه غمامة كبيرة ، وقفت ساكنة برهة ، ثم ذابت في
 خيوط دقيقة ، بعضها نحو الضوء ، والآخر اختلط مع
 سواد الليل في الجانب المظلم . وجاء بدوي من عرب القوز
 يقصد الدكان فقام اليه سعيد . وسمعه يقول لسعيد : « خسة
 ارطال سكر ونص رطل شاي » . وقال احمد اسماعيل :
 « العرب ديل كل قروشن مودرنها في السكر والشاي » .
 وهنا صاح الزين بسعيد : « خلي المره تعمل شاي مضبوط

باللبن . يكون مضبوط . فقال له سعيد : « حاضر يا زعيم
نعمل لك شاي مضبوط باللبن » . ثم نادى من شباك يصل بين
المتجر والدار خلفه : « اعملوا قوام شاي ثقيل باللبن للزعيم »
وانتفض الزين ، فقال بمرح : « انا ارجل راجل في البلد دي
ولا ؟ لا ؟ » فقال له الطاهر : « طبعاً » . « طيب ليه الحمار
الذكر يروح لي عمي ويقول له الزين مش راجل بتاع عرس ؟ »
وقال محبوب : « الداهي بقي افرنجي . وبن عرفت الفصاحة
دي ؟ مش راجل بتاع عرس ؟ » وقال ود الرئيس : « الامام
غاير منك . داير المره لي رقبته » .

فقال الزين : « بت عمي ولا ؟ يروح يشوف له
بت عم » .

قال له محبوب بحزم : « المعقد يوم الخميس الجايي : بعد
دا ما فيش طرطشة ورقيص وكلام فاضي . سمعت
ولا ؟ لا ؟ »

سكت الزين :

وسأله الطاهر الرواسي : « منو القال لك ؟ » فقال الزين
« هي نفسها كلمتني » .

كان محبوب ممدداً رجله على الرمل ، متكئاً على ذراعيه
فلما سمع هذا ، تشنج جسمه كأن احداً قرصه ، واستوى
جالساً : « هي بنفسها كلمتك ؟ »

« اي . جاتني الصباح بدري في بيتنا . وقالت لي قدام
امي : يوم الخميس بمقدوا لك علي . انا وانت نبقي راجل
ومره ، نسكن سوا ، ونعيش سوا . »

وارتفع صوت محبوب من فرط حماسه ، وقال في
اعجاب ليس له حد : « علي باليمين مره تملا العين .
طلاق ، بت ما ليها اخت . » وجاء سعيد يحمل الشاي ،
فقال له محبوب : « سمعت الكلام دا ؟ البت مشت كلمته
بنفسها . فقال سعيد : « بت عنيدة رأسها قوي
ربنا يستر . » صمت الباقون برهة ، ولكن محبوب
ضرب فخذه براحه يده عدة مرات ، وقال وهو يتلفت
يميناً وشمالاً ، بحماسة وانفعال : « يمين الزين ماش يعمرس
له بتنا تشبه فوق المعجين ما يلخبطه . »

وشرب الزين الشاي ، في صخب كهادته ، يمص الشاي
مصاً له زئير . وفجأة وضع الكوب من يده ثم ضحك .
وقال في سرور : « الحنين قال لي قدامكم كلكم : باكر تعمرس
احسن بت في البلد . » ثم انفجر بزغردة عظيمة ، كزغاريد
النساء في العرس ، وصاح بأعلى صوته : « أرووك يا ناس
الغريق ، يا اهل البلد ، الزين مكتول . كئلته نعمة بنت
الحاج ابراهيم . » وصمت بعد ذلك فلم يفه بكلمة . ولم
يلبثوا ان سمعوا صوت سيف الدين (انتصار آخر للامام)
يؤذن لصلاة العشاء ، فسرت فيهم حركة خفيفة جداً . تنحج
محبوب ثم وحرك احمد اسماعيل اصابع قدمه بطريقة لا

شعورية ، وتنهّد عبد الحفيظ ، ومال الطاهر الرواسي إلى
 الوراء قليلاً ، قال سعيد : « أشهد ألا إله إلا الله ، وراء
 المؤذن بصوت خافت ، ونفخ حمد رد الرئيس في رمل لا
 وجود له من يده ولما انتهى الأذان وسمعوا صوت الإمام
 ينادي في صحن المسجد : « الصلاة ، الصلاة » ، قام كل
 واحد منهم إلى بيته ليحضر عشاءه . وكما يصلي الناس جماعة
 في المسجد ، سيتمشون هم مجتمعين ، جالسين في دائرة حول
 صحن الطعام ، يرف عليهم ضوء المصباح الكبير ، المعلق في
 متجر سعيد . يأكلون بنهم ، شأن الرجال الذين تشرق
 جباههم من الجهد سعابة يومهم . يأكلون النجاسات اللحم ،
 والمخوخية بالمرق ، والبامية المصنوعة في الطاجن . في كل
 ليلة يذبح أحدهم اما شاة صغيرة ، وإما حلاً . ويندو
 عليهم أطفالهم بمزيد من الأسكل ، ينزل الصحن مليئاً وما
 يلبث أن يرتد فارغاً . هذا الوقت من الليل هو قبة يومهم ؛
 لمثل هذا تعمل زوجاتهم من طلوع الشمس إلى غروبها
 يأتيهم المرق في صحن عميقة واللحم لهنمر في صحن
 بيضاوية واسعة . يأكلون الأرز وخبزاً سميكاً من القمح ،
 وفطائر رقيقة تصنع على صاجات ملساء من الحديد .
 يأكلون السمك واللحم والخضار ، والبصل والفجل ،
 لا يبالون ماذا يأكلون . حينئذ تتور عضلاتهم ، ويصبح
 حديثهم حاداً مبتوراً ، يتحدثون وأفواههم ملأى . ويأكلون
 في صخب تسمع صرير أسنانهم وهي تمضغ الطعام ، وإذا

شربوا وترقرقت حلوقهم بالماء . يتكبرون بأصوات هالية ،
 ويمصصون بشفاهم . وحين ترد الألالي فارغة ، يؤتى
 بالشاي ، فيملأون أكوابهم ، ويشمل كل واحد منهم سبجارة ،
 ويمد رجله ويسارخي في جلسته . يكون الناس قد فرغوا
 من صلاة العشاء . يتحدثون في هدوء وقناعة ، ولعلمهم حينئذ
 يشمرون ذلك الشعور الدافئ المطمئن ، الذي يحسه المصلون
 وهم يقفون صفاً خلف الإمام ، كنفاً بكتف ، ينظرون إلى
 نقطة بعيدة غامضة تلتقي عندها صلواتهم . في هذا الوقت
 تخف الحدة في عيني محبوب ، وهما سارحتان في الخط الضئيل
 الباهت الذي ينتهي عند ضوء المصباح ويبدأ الظلام (أين
 ينتهي ضوء المصباح ؟ وكيف يبدأ الظلام ؟) يعمق صمته
 وقتذاك ، وإذا سأله أحد أصدقائه فلا يسمع ولا يرد . هذا
 هو الوقت الذي يقول فيه ود الرئيس ، فجأة ، جملة واحدة
 كأنها حجر يقع في بركة : « الله حي » ، ويميل أحمد اسماعيل
 برأسه قليلاً ناحية النهر ، كأنه يستمع إلى صوت يأتيه من
 هناك . في مثل هذا الوقت أيضاً يطلق عبد الحفيظ أصابعه
 في صمت ، ويتنهد الطاهر الرواسي ملء صدره ويقول :
 « روح يا زمان وتعال يا زمان » .

هل يحسون حينئذ أنهم يزدادون قرباً من تلك النقطة ؟
 أم تراهم يدركون أن النقطة الغامضة الصامتة في الوسط ،
 أمر تنتهي الحياة ولا ينتهي إليها المرء ؟ .
 « ايوي ... ايوي ... ايوي ... ايوي » .

اول من زعمت ام الزين .

كانت فرحة لاسباب عدة . فرحة فرح الأم الفريزي
لزواج ابنها . تلك مرحلة حاسمة ، وكل أم تقول لابنها :
« اشتهي ان افرح بزواجك قبل ان اموت » . وكانت ام
الزين تحس ان حياتها تنحدر للغروب . ثم ان الزين كان ابنها
الوحيد ، بل كان كل ما المحبت ، ولم يكن كبقية الناس ،
فخافت ان تموت ولا يحمد من يرعاه . فهذا الزواج اراح بالها .
وزواج الزين مناسبة تسترد فيها هداياها لأهل البلد في زواج
ابنائهم وبناتهم . وكان الناس احياناً يتمجبون وم يرونها
تسارع بدفع ربيع الجنيه ونصف الجنيه في الاعراس ، لاية
غاية ؟ « هل تظن انها سترده في عرس الزين ؟ فكان عرس
الزين مناسبة قطعت السنة الشامتين . والزين لن يتزوج امرأة
من عامة الناس ، ولكنه سيتزوج نعمة بنت الحاج ابراهيم ،
وناهيك بهذا دليلا على كرم الاصل ، والفضل ، والجاه ،
والحسب . ستدخل ذلك البيت الكبير المبني من الطوب
الاحمر (فليس كل بيوت البلد من الطوب الاحمر) ، تدخل
مرفوعة الرأس ، ثابتة الخطوة . سيقومون لها اذا دخلت ،
ويوصلونها للباب اذا خرجت ، ويعودونها كل يوم اذا
مرضت . ستقضي الايام الباقية في حياتها في فراش وثير
من الرعاية والحب . ولعل القدر يعيها فتحمل حفيدها او
حفيدتها في حضنها . تزعمد ام الزين ، وتولود هذه
الحواطر في ذهنها ، فتشتد زغاريدها .

وزغرد معها جيرانها واحباؤها ، واهلها وعشيرتها .
لكن كيف حدثت المعجزة ؟

اختلفت الاقاويل . قالت حليلة بائعة اللبن لآمنة ،
وكأنها تقيظها بمزيد من انباء عرس الزين ، ان نعمة رأت
الحنين في منامها ، فقال لها : « عرسي الزين . اللي تعرس
الزين ما بتندم » . واصبحت الفتاة فحدثت اباها وامها ،
فاجمعا على الأمر . وهزت آمنة رأسها وقالت : « كلام » .
وزعم الطريفي لزملائه في المدرسة ان نعمة وجدت الزين
في حشد من النساء ، يغازلن ويمبثن به . فحدثتهن بنظرة
صارمة وقالت لهن . « باكر كلكن تأكلن وتشربن في
عرسه » . وخرجت من وقتها فقالت لأبيها وأمها ،
فوافقا على ذلك .

وروى عبد الصمد للناس في السوق ، ان الزين هو الذي
طلب الزواج من نعمة ، وانه صادفها في الطريق فقال لها :
« بت عمي ؟ تعرسيني ؟ » فقالت نعم . وانه هو الذي ذهب
الى عمه وكلمه في الامر فقبل الرجل .

الا ان المرجح ان الذي حدث غير هذا ، وان نعمة ،
بما فيها من عناد واستقلال في الرأي ، وربما بوارع الشفقة على
الزين ، او تحت تأثير القيام بتضحية ، وهو امر منسجم مع
طبيعتها ، قررت ان تتزوج الزين . ويرجح ان معركة عنيفة
دارت في بيت حجاج ابراهيم بين الاب والام في طرف ،
والبنت في الطرف الآخر . كان اخوتها غائبين فكتبوا لهم .

ويقال ان الاخوين الكبيرين رفضا البتة ، وان الاخ الاصغر
 قبل وقال في جوابه لابيہ : « ان نعمة كانت دائما عنيدة في
 رأيها . والآن وقد اختارت زوجها بنفسها قدعوها وشأنها ،
 خلاصة القول ان حاج ابراهيم اعلن النبأ فجأة . وكان
 الناس كلوا يتوقعونه بعد حادث الحنين . الغريب ان احدا لم
 يضحك او يسخر ، ولكنهم هزوا رؤوسهم وزادت حيرتهم
 وهم ينظرون الى الزين - ينظرون اليه ، فيتضخم في نظرم .
 وهكذا انطلقت عقيرة أم الزين بالزغاريد ، وزغرد معها
 جيرانها واحباؤها واهلها وعشيرتها ، وكل من يتمنى لها الخير .
 « ايوي ايوي ايوي ايوي » .

لو ان المرس لم يكن عرسه ، لميز الزين صوت كسل
 منهن في زغاريدها .

هذه بت عبد الله ، صوتها عذب وصرختها قوية من
 كثرة ما زغردت في اعراس الآخرين . ظلت عانسا عمرها
 فلم تتزوج ، لكنها كانت تفرح لافراح كل احد في الحي .
 « اجوج اجوج اجوج اجوجا » .

هذه سلامة ، كانت جميلة ، وكانت تنطق الياء هكذا
 وكانت مرهفة الحس . لم يسعدها جمالها ، فتزوجت وطلقت
 وطلقت وزوجت ولم تستقر مع رجل ولم تتعب اولاداً ،
 حلوة الحديث ، مهزارة ، لها مع الزين قصص وحكايات ،
 تزغرد لأنها تحب الحياة .

« ايوي . ايوي ايوي » .

هذه آمنة تزغرد من شدة غيظها . (هل تذكر آمنة
وكيف ارادت البنت لابنها فقالوا لها البنت قاصر لم تصر
للزواج ؟)

« اوو ... اوو ... اووا » .

هذه عثمانة الطرشاء، قلبها الاصم عربد بالحب في عرس الزين
ثم اشتملت شملة من الزغاريد في دار حاج ابراهيم .
قراءة مائي صوت ، انطلقت مرة واحدة فارتجت نوافذ
الدار .

وتزغرد ام الزين فيرد عليها النساء ، وتسمع زغاريدهن
فتزغرد من جديد .

لم تبق امرأة لم تزغرد في عرس الزين .

وماج الحمي من اركانه ، وامتلات الدور بالوافدين ،
لم يبق بيت الا انزلوا فيه جماعة من القوم . دار حاج ابراهيم
على سعتها ، امتلات ، ودور كل من محبوب ، وعبد الحفيظ ،
وسميد ، واحمد اسماعيل ، والطاهر الروامي ، وحمد ود
الريس . دار الناظر ، ودار المدة ، وبيت القاضي الشرعي .

وقال شيخ علي لحاج عبد الصمد : « عرس زي دا الله
خلفني ما شفت زيت » .

وقال حاج عبد الصمد : « علي بالطلاق الزين عتس
عرس صح مو كذب » .

اجرى الإمام مراسم الزواج في المسجد . تاب حاج
ابراهيم عن ابنته ، و تاب محبوب عن الزين . ولما تم العقد ،
قام محبوب ، ووضع المهر على صحن ، حتى يراه كل احد .
مائة جنيه ذهباً ، وهي من حر مال حاج ابراهيم . وقف
الامام بعد ذلك ، وادار عينيه في الرجال المجتمعين (كانت
ام الزين المرأة الوحيدة بينهم) وقال ان الجميع يعلمون انه
عارض هذا الزواج ، اما وان الله شاء له ان يتم فهو يسأله
سبحانه وتعالى ان يجعله زوجاً سعيداً مباركاً . التفت الناس
الى الزين ولكنه كان مطرقاً . وقال محبوب لعبد الحفيظ
بصوت خافت : « ايه لزوم ذكر المعارضة والكلام الفارغ؟ »
وعجبوا حين رأوا الامام يمشي نحو الزين ، ويضع يده على
كتفه ، فالتفت اليه الزين بشيء من الدهشة . امسك الإمام
بده وشد عليها بقوة ، وقال بصوت متأثر : « مبروك . ربنا
يجعله بيت مال وعمال » . تلفت الزين حوله ببلاهة ، ولكن
احمد اسماعيل نظر اليه نظرة صارمة فطأطأ برأسه .

دمدم طبل النحاس الكبير وهدر . يقولون انه يتكلم .
وقالت بت عبدالله لسلامة : « النحاس يقول : الزين عرس
الزين عرس » . فزغردت سلامة بصوتها الحلو .

تقاطر على الحفل عرب الفوز ، يتسابقون على جاهلهم ،
فاستقبلهم الطاهر الرواسي ، وانزلهم في احدى الدور ،
وامر لهم بالطعام والشراب .

وجاء فريق الطلبة عن بكرة أبيه - على رأي المثل -
فتصدى لهم احمد اسماعيل وانزلهم ، ربط دوابهم وجاء لها
بالعلف ، ثم أمر لهم بالطعام فطمعوا وشربوا .

وجاء الناس من بحري . وجاء الناس من قبلي .
جاءوا عبر النيل بالمراكب ، وجاءوا من أطراف البلد ،
بالخيول والحير والسيارات ، فأنزلهم زمراً زمراً ، في كل
بيت طائفة ، يقوم على خدمتهم أفراد العصابة ، فمذا
يومهم : يعدون لكل شيء عدته لا تفوتهم صغيرة ولا
كبيرة . لن يمتوا طعاماً ، ولن يذوقوا شراباً ، حتى
يأكل ويشرب الناس .

زغردة منفردة ، ثم مجموعة زغاريد ، ثم طبل وحيد
يهمهم ، ثم طبول كثيرة لأصواتها أصداء . ولوح الرجال
بأيديهم وهزوا بالمصي والسيوف ، وأطلق العمد من بندقيته
خمس طلقات . وقالت آمنة لسمدية : « الأمة دي ان
شاء الله تقدرروا تكفتوها » . ولم تقل سمدية شيئاً .

نحرت الابل ، وذبحت الثيران ، ووكت قطعان من
الضأن على جنوبها . كل أحد جاء أكل حتى شبع وشرب
حتى أرتوى .

وكان الزين يبدو مثل الديك ، لا بل اجل ، مثل
الطاووس . ألبسوه قفطاناً من الحرير الأبيض ، ومنطقوه
بحزام أخضر ، وعلى ذلك كله عباءة من الغمل الأزرق ،
فضفاضة يملأها الهواء فكأنها شراع ، وعلى رأسه عمامة

كبيرة تميل قليلا الى الامام ، وفي يده سوط طويل من جلد
التمساح ، وفي اصبعه خاتم من الذهب ، يتوهج في ضوء
الشمس نهاراً ويلعب تحت وهج المصابيح بالليل ، له فص من
الياقوت ، في هيئة رأس الثعبان . كان منتشياً دون شرب
من الضجة الكبيرة التي تضج حوله ، يبتسم ويضعك ،
يدخل ويخرج بين الناس ، يمز بالسوط ، ويقفز في الهواء ،
يربت على كتف هذا ، ويمر هذا من يده ، ويبحث هذا على
الأكل ، ويمحلف على هذا بالطلاق ان يشرب . وقال له
محبوب : « دحين أصبحت بني آدم . حلفتك بالطلاق يا
دوب أصبح ليها معنى » .

جاء تجار البلد وموظفوها ووجهائها وأعيانها . وحضر
أيضاً الحلب المرابطون في الغابة .

جاء بأحسن المغنيات وأحسن الراقصات ، ضاربات
الدف وعازفي الطنابير . وأخذت فطومة ، وكانت أشهر
مغنية غربي النيل ، تشدو بصوتها المثير :

« انطق يا لسان جيب المديح اقداح
الزين الظريف خلا البلد أفرح »

وجرجروا الزين وأدخلوه عنوة حلبة الرقص . فهز
بسوطه فوق المغنية ووضع على جبهتها ورقة جنبيه . وتفتجرت
الزغاريد مثل الينابيع .

اجتمعت النقائض تلك الأيام . جوارى الواحة غنّين

ورقصن تحت سمع الإمام وبصره . كان المشايخ يرتلون القرآن في بيت ، والجواري يرقصن ويفنن في بيت ، المداحون يقرعون الطار في بيت ، والشبان يسكرون في بيت . كان فرحاً كأنه مجموعة أفراح . وكانت أم الزين ترقص مع الراقصين ، وتنشد مع المنشدين . تقف هنيئة تستمع للقرآن ، ثم تهول خارجة إلى حيث يطهى الطعام ، تحت النساء على العمل . وتجري من مكان إلى مكان وهي تنادي : « ابشروا بالخير . ابشروا بالخير »

وقالت حليلة ، بائعة اللبن ، تفيظ آمنة : « أرينه يايم . عرس السرور » .

نقرت « الدلايك » نقرات نشيطة متحفزة دقات الدليب . وغنت فطومة :

« التمر البيفرق بدري سارق نومي شاغل فكري ، وقف الرجال في دائرة كبيرة ، تحيط بفتاة ترقص في الوسط ، ثوبها المنحدر عن رأسها ، وصدرها بارز للأمام ، ونهداها نافران . ترقص كما تمشي الأوزة ، ذراعاها الى جانبيها تحركها في تناسق مع رأسها وصدرها ورجليها . ويصفق الرجال ويضربون الأرض بأرجلهم ، ويحمحمون بحلقهم . وتضيق الدائرة على الفتاة ، فترمي شعرها المشط المعطر على وجه أحدهم . ثم تتسع الدائرة . وتهاوج الزغاريد ، ويشد التصفيق ، ويقوى وقع الأرجل على الأرض ، ويخرج الغناء سلساً ، ملحناً من حلق فطومة :

« الزول السكونه قشاي طول الليل عليه بشاي ،

وانتشى ابراهيم ود طه من الغناء ، فصاح : « آه . قولي
كان الله يرضى عليك » .

رقصت هشانة الطرشاء ، وصفق موسى الأعرج . ولم تلبث
دقات الدلايلك أن أبطأت وأصبح لها أزيز مكنوم . هذه
نقرات الجابودي . وقويت حممة الرجال في حلقهم . ودخلت
سلامة حلبة الرقص . صالت وجالت ، وهي تهرمو وتختال
مثل المهرة . كانت خير من يرقص الجابودي ، وكانت لها
معجبون كثيرون ، ترقبها عيونهم فتنتفلت منها كالسمكة في
الماء . كثفت حلقة الرقص ، واشتد التصفيق ، وهدرت
أصوات الرجال ، ودخل الزين الحلبة ، دخل من تلقاء نفسه
هذه المرة ، طويلاً فوق سلامة ، فلطمته بشعرها الطويل
المنهدل فوق كتفها ، وغمزته بيمينها . وكان الإمام جالساً مع
جماعة ، في ديوان حاج ابراهيم الذي يشرف على فناء الدار ،
فحانت منه التفاتة ، ووقعت عينه على سلامة وهي منهمكة في
رقصها . ورأى صدرها البارز ، ورأى كفلها الكبير ، حين
تضرب برجلها يهاز ويترجرج ، منقسماً الى شقين كأنها نصفان
بطيخة ، بينهما وادٍ هبط فيه الثوب . وكانت سلامة في رقصها
قد اثنت حق أصبح جسمها في شكل دائرة ، فس شعرها
الأرض ، وزاد بروز صدرها ، وثنو كفلها ، ورأى الإمام
ساقها اليمنى وجزءاً من فخذهما الممتلئ ، وقد رفع عنه الثوب .

وحين عاد الإمام بوجهه الى مبعده ، كانت عيناه مربدتين مثل
الماء المكر .

« ايبيبيسيويا » .

هذه حليلة بائنة اللبن ، تزغرد طمعا في خير تناله من أهل
المرس .

وتحولت دقات الدلائيك الى الموضة . دقتان سريعتان
وأخرى منفردة . وأخذ الرجال يرحون بأقدامهم كما تحب
الحيل . وتقاطر عرب القوز على حلبة الرقص ، فتواثبوا
وقصايحوا وطرقوا بأسواطهم . رجال قصار القامات
مشدودو العضلات ، اجسامهم ريانة ندية في مثل لون الأرض
لأنهم يمشون على لبن الابل ولحم الفلزان يلبس الواحد منهم
ثوبا يربطه في وسطه ويلقي طرفه على كتفيه . اذا قفز في
الهواء لمع جسمه في ضوء الشمس يلبسون في ارجلهم اخفافا
وفي ذراع كل منهم سكين في غمده . وتختلط أصوات
الراقصين وضربات الدلائيك بدقات الطار ونشيد المداحين في
البيت المجاور . هناك اجتمع حشد آخر في شكل دائرة ايضا
ويدور فيها رجلان كل منهما ممسك بالطار احدهما الكورناوي
ومعيد المداحين . كان يقول :

« نِعم المَبَا وروّح بي سَبَلُ القَرُشْ شافْ
المَلَمْ لَوّحْ زارُ جدّ الحسين »

وتدمع اعين الناس ، وبعضهم يحش بالبكاء ، خاصة الذين

حجوا وزاروا مكة والمدينة والاماكن التي يصلها السامح .
ويمضي الرجل يهزج ، في صوت له بجة اشهر بها :

« نعم العبا وحادا

بي سهل القريش شاف الصلّم نادی

زار جدّ الحسين

فرشوله الزبيب والتين والحنبهب .

كاسات من حيا قالو له هاك اثرب

زار جدّ الحسين »

وتحتلظ زغاريد النملء في حلقة المديح بزغاريد النساء في
حلبة الرقص . وأحيانا يجاز فریق من حلبة الرقص إلى
حلقة المديح . هناك تتحرك أرجلهم ويثور حماسهم ، وهنا
تدمع أعينهم . كذلك يتحول فریق من حلقة المديح إلى
حلبة الرقص ، يجازون من الشوق إلى الصخب .
وفجأة تنبه محبوب .

أين الزين ؟

كان مشغولا كبقية عصابته بتنظيم الفرع ، فاخفى
الزين عن عينه .

سأل عنه كلا من الباقيين ، فقالوا ان أحدا منهم لم يره
منذ قرابة ساعتين . وقال عبد الحفيظ انه يذكر أنه رآه
آخر مرة يستمع للداحين .

بدأوا يبحثون عنه ، دون ان يحس أحد ، مخافة ان
يفلق الباقون . لم يحدوه مع الحشد المجتمع مع الإمام في

السماوات الكبير ، ولم يكن في حلقة المديح ، ولم يكن مع أي من جماعات الرقص المتناثرة في البيوت . دخلوا المطابع حيث النسوة يزحفن أمام الأفراس والقصور ، فلم يكن الزين هناك .

حينئذ أصابهم الذعر ، فإن الزين قد يفعل أي شيء ، قد ينسى أمر زواجه ، ويختفي هكلماته .

وتفرقوا يبحثون عنه ، فلم يتركوا موضعاً . بعضهم ضرب في الصحراء قبالة الهي ، وبعضهم ذهب ناحية الحقول ، حتى ضفة النيل . دخلوا البيوت بيتاً بيتاً . تفرسوا تحت جذع كل نخلة وكل شجرة .

لم يبقَ إلا المسجد . لكن الزين لم يدخل المسجد في حياته ، كان الوقت أوائل الليل ، ليل كثيف مظلم . وكان المسجد ساكناً خاوياً ، قد تسرب الضوء من مصابيح العرس خلال نوافذه ، في خطوط مستطيلة من النور ، انعكس بعضها على السجاجيد ، وبعضها على السقف ، وبعضها على الحراب . وقفوا ينصتون فلم يسمعوا حساً ، إلا أصوات العرس تتناهى إليهم . ونادوا باسمه وبحثوا في أركان المسجد وفي ردهاته فلم يجدوا الزين .

وفقدوا الأمل . لا بد أنه هرب . لكن إلى أين . والبلد كلها مجتمعة عندهم .

وبقعة خطر خاطر في ذهن محبوب ، فصاح : « المقبرة ! » . لم يصدقوا . ماذا يفعل في المقبرة في ذلك الوقت من الليل ؟

لكن محبوب سار أمامهم فتبعوه .

ساروا صامتين وراء محبوب بين القبور ، تتناهى إليهم أصوات الغناء والزغاريد عالية واضحة ، ثم خافنة بميدة . كان المكان بلقماً ، إلا من شجيرات السلم والسيال التي تناوت بين المقابر ، وامتلات الثغرات بين فروعها بالظلام فبدت كأنها سفن في لجة . وفي الوسط بدا الضريح الكبير غامضاً مخيفاً . وفجأة وقف محبوب وقال لهم : « اسمعوا ، لم يسمعوا شيئاً أول الأمر ، فأرهقوا أذانهم ، فإذا بنشيج خافت يتناهى إليهم .

سار محبوب ، وساروا وراءه ، حتى وقف فوق شبح جاثم عند قبر الحنين . وقال محبوب : « الزين . الجابك هنا شنو ؟ » .

لم يرد ، ولكن بكاءه اشتد حتى أصبح شقيقاً حاداً .

وقفوا وقتاً يراقبون في حيرة . ثم قال الزين في صوت متقطع ، يتخلله النحيب : « أبونا الحنين إن كان ما مات كان حضر العرس » .

ووضع محبوب يده على كتف الزين برفق وقال له : « الله يرحمه . كان راجل مبروك . لكن الليلة ليلة عرسك . الراجل ما يببكي ليلة عرسه . يا لله أرح » .

وقام الزين وسار معهم .

وصلوا الدار الكبيرة ، حيث أغلب الناس ، فاستقبلتهم
الضجة ، وغشيت عيونهم أول وهلة من النور الساطع المنبث
من عشرات المصابيح . كانت فطومة تفتي ، والدليلك تزجر ،
وفي الوسط فتاة ترقص ، وحوفا دائرة عظيمة فيها عشرات
الرجال يصفقون ويضربون بأرجلهم ويحمحمون بحلوقهم .
انفلت الزين ، وقفز قفزة عالية في الهواء فاستقر في وسط
الدائرة . ولمع ضوء المصابيح على وجهه ، فكان ما يزال مبللا
بالدموع . صاح بأعلى صوته ، ويده مشهورة فوق رأس
الراقصة : « أبشروا بالخير .. أبشروا بالخير » . وفار المكان ،
فكانه قدر تغلي ، لقد نفت فيه الزين طاقة جديدة . وكانت
الدائرة تلتسع وتضيق ، تلتسع وتضيق ، والأصوات تغطس
وتطفو ، والطبول ترعد وتزجر ، والزين واقف في مكانه في
قلب الدائرة ، بقامته الطويلة ، وجسده النحيل ، فكانه
صاري المركب .

